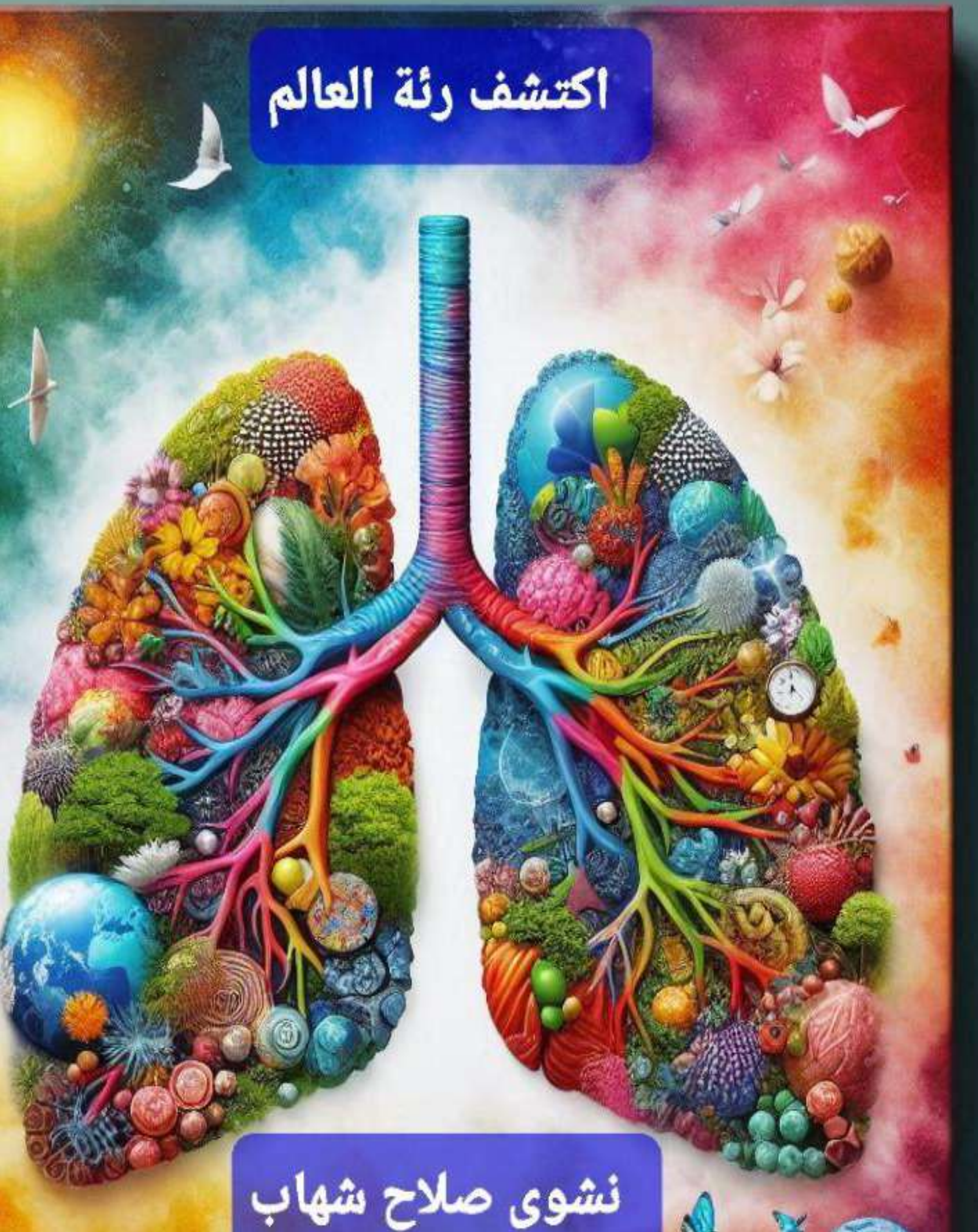
اكتشف رئة العالم
نشوى صلاح شهاب

اكتشف رئة العالم

نشوى صلاح شهاب

"جميع الحقوق محفوظة. غير مسموح بتعديل هذا المحتوى أو إعادة نشره بأي طريقة كانت دون إذن كتابي من المؤلف."

إهداء

إلى الأرض التي نعيش عليها ونتنفس منها، إلى رئات العالم التي تحفظ لنا الحياة .

التخطيط للسفر

استيقظت من نومي متأخرًا على غير عادتي. بالأمس كان وداع آخر أيام الامتحانات في مدرستي الإعدادية، واليوم أستقبل أول أيام الإجازة الصيفية التي أطلّت بشمسها المتوهجة وحرارتها الحارقة، محملةً بالحماس والحيوية التي تدفعني للتفكير في استغلال الوقت. وأين يمكنني أن أجد هذا الاستغلال أفضل من السفر! السفر الذي يفتح أبوابًا نحو المغامرة، حيث يلتقي الإنسان بثقافات جديدة ولغات غريبة ويكتشف أفقًا مختلفًا تمامًا عن واقعه اليومي.

أنا معاذ، مُحبٌّ لكل ما يحمل معنى المغامرة، متعطش لتجربة أشياء لم أعتد عليها. لا أفضّل البقاء ساكنًا دون تغيير أو استكشاف، لذا بدأت أخطط لقضاء إجازتي الصيفية بين أحضان الطبيعة الخلابة لجمهورية الكونغو الديمقراطية. كان لدي حلم أن أزور هذا البلد الذي طالما سمعت عنه الكثير، حيث يعمل عمي مراد في الغابات الاستوائية المطيرة. هناك، يقوم بقطع أشجار الماهوجني اللامعة والمشهورة بجودتها – بالطبع بطرق مشروعة – ليحولها إلى أثاث متين وقوي.

لطالما شعرت بالفخر بعمي مراد، فهو نموذج للعصامية، شخص استطاع أن يواجه التحديات ويعمل في بلد بعيد وظروف صعبة. في أحد الأيام، شاهدت برنامجًا وثائقيًا في التلفاز يروي قصصًا عن الكونغو، مملوءًا بصور عن الغابات العميقة والجبال الشاهقة والحيوانات النادرة التي لم أراها إلا في الكتب أو الأفلام. لكنّ

البرنامج لم يخلُ من الإشارة إلى الصراعات الدائرة هناك، والحروب التي تترك آثارها على البلاد، إضافة إلى ما يُرتكب بحق الطبيعة من قطع للأشجار وتجريف للتربة وصيد غير مشروع للحيوانات. أثارتني هذه القضايا كثيرًا، وقررت أن أكتب مقالًا عنها بعنوان "إفساد الإنسان لغابات الكونغو"، لنشره في موقعي الإلكتروني الذي أنشأتُه مؤخرًا كنشاط مفيد أقتل به السأم والملل وأملأ به أوقات الفراغ الطويلة، فأنا لا أحب أن أضيع أوقات فراغي في أمور تافهة وغير مجدية . كما كنت أرى أن هذه القضايا تستحق أن تُروى وأن تصل للناس.

لم يكن والدي متحمسًا لفكرة السفر عندما طرحتها عليه بعد ظهور نتائج الامتحانات – والتي كانت مبهرة! إذ حصلت على المركز الأول في مدرستي عن جدارة واستحقاق. حاولتُ إقناعه قائلًا: "يا أبي، الطبيعة هناك ساحرة للغاية! الجبال الشاهقة التي تزدان قممها بفوهات البراكين النشطة والأنهار الممتدة، الغابات التي تعج بالحيوانات النادرة مثل الغوريلا الجبلية ووحيد القرن وفيل الأدغال. أريد أن أكتب عنها مدعومة بصور وفيديوهات حصرية التقطها بنفسي." لم يقتنع والدي بسهولة، فقد كان قلقًا من المخاطر الأمنية والصحية، فقال وهو يهز رأسه بالنفي:

"لا أعتقد أنها فكرة سديدة يا معاذ. فعلى الرغم من جمال الطبيعة وجاذبية التضاريس هناك في الكونغو، إلا أنها لا تزال خيارًا مستبعدًا بالنسبة لي، بسبب اضطراب الأمن، وانتشار الجرائم، وتفشي الأمراض والأوبئة. ولا تنسَ، أيها الحاذق، أن تلك القمم البركانية التي تتحدث عن جمالها تثور وتفور وتنطلق منها الحمم

البركانية الحمراء الملتهبة، مُخلّفةً خسائر كبيرة في الأرواح، والأموال، والمنشآت. وذلك ليس بالأمر الهيّن، صدقني."

لم أكن أُلقي بالًا لحديث أبي؛ فلن تقوم الحروب وتثور البراكين بمجرد دخولنا إلى تلك البلدة. أعتقد أن أبي يبالغ بعض الشيء، ولكنني حاولت إقناعه بشتى الطرق والحيل الممكنة. قلت له: "ولكنها أيضًا فرصة عظيمة يا أبي لتلبية رغبة عمي في الذهاب إليه وزيارته. لقد مضى وقت طويل منذ آخر زيارة له هنا في قريتنا الصغيرة بالدلتا، ولم نره منذ ذلك الحين. وأظن أنه سيفرح كثيرًا بذهابنا إليه وزيارتنا له هناك في الكونغو الديمقراطية.

لم يجد أبي مفرًا من الموافقة على طلبي أمام ضغطي الشديد وإلحاحي المستمر عليه. ظل صامتًا لبرهة، ينظر بعيدًا وكأنه يُقيم كلماتي في عقله. شعرت بأن هذا الصمت يحمل في طياته صراعًا داخليًا بين رغبته في الحفاظ على أماننا وخوفه من أن يخذلني.

فقطعت الصمت قائلًا بحماسة: "أبي، أعدك أن أكون على قدر المسؤولية. هذه الرحلة تعني لي الكثير. أريد أن أرى عمي وأستمع إلى قصصه عن الكونغو التي طالما تحدث عنها بحماس. إنها فرصة لن تتكرر، ولن نخاطر بأي شيء دون تفكير."

عاد والدي يلتفت نحوي ببطء، وبدت ملامح وجهه متجهمةً، لكنه في النهاية تنهد بعمق وقال: "حسنًا، كما تشاء." ثم أضاف بنبرة يملؤها الحزم، مع عقد حاجبيه ورفع إصبعه للتأكيد: "لا أحب أن أرفض لك طلبًا، ولكنني أحذرك: هذه الرحلة لن تكون خالية من

التحديات. عليك أن تتحمل عواقب قراراتك، وألا تنسى يومًا أن اختيارك هذا قد يجلب معه نتائج لن تكون دائمًا في صالحك."

شعرت بالانتصار عندما سمعت كلماته، ولكن ذلك الحزم الذي استقر في صوته ذكرني بأن المسؤولية التي أتحملها الآن أكبر مما تصورت.

نظرت إلى أبي بابتسامة مليئة بالامتنان وقلت: "أعدك يا أبي، لن تندم على موافقتك. سأكون حريصًا وسأفكر في كل خطوة نتخذها." ثم أسرعت خارج الغرفة لأبدأ التخطيط للرحلة، وقد شعرت بأن فصلاً جديدًا من حياتي على وشك أن يبدأ، مليئًا بالمغامرة والمسؤولية.

وبناءً على ما سبق، قام أبي بحجز تذكرتين لنا عبر الإنترنت للسفر إلى الكونغو الديمقراطية جوًا عن طريق الطائرة. كانت تلك اللحظة بمثابة شعلة أشعلت في قلبي حماسة غير مسبوقة، فقد تحول حلم السفر بالطائرة من مجرد خيال أراه على شاشة التلفاز إلى حقيقة بدأت تتجسد أمامي.

لأول مرة في حياتي، سأقترب من تلك الطائرات الضخمة التي كنت أتابعها بإعجاب ودهشة على شاشات التلفاز. شعرت بمزيج من المشاعر المتباينة، بين الفرح الذي يطفو فوق السطح، والخوف الذي يتسلل من زوايا العقل. تساءلت في داخلي: "هل سيكون التحليق فوق الغيوم ممتعًا كما يبدو؟ أم أن رهبة الارتفاع والهواجس المجهولة ستطغى على تلك المتعة؟"

لم أستطع إلا أن أستسلم لأفكاري، متخيلًا نفسي جالسًا بجوار النافذة، أراقب العالم وهو يتضاءل شيئًا فشيئًا تحت جناحي الطائرة. تخيلت كيف ستكون الأصوات، وكيف سأشعر مع أول حركة للإقلاع، ومع كل ارتعاشة خفيفة للطائرة في الهواء.

بدأت التحضيرات فور حصولي على موافقة أبي. اشتريت لوازم السفر ورتبت أمتعتي، لكنني شعرت بحاجتي الماسة إلى هاتف ذكي مزود بكاميرا جيدة. لجأت إلى أخي الأكبر، مالك، طالب الجامعات الذي يتمتع بجسد قوي وقامة طويلة، بخلاف شكلي النحيف وصورتي الأصغر من عمري. ولكنه يشبهني في العديد من الصفات الوراثية الأخرى؛ فهو يحمل نفس لون بشرتي وشعري وعينيّ، وشكل وجهه دائري كالبدر المنير. بمجرد أن سمح لي بدخول غرفته فور سماعه صوت نقرات يدي على الباب، بدا وكأنه قد تنبأ باحتياجي لأحد أشيائه الشخصية. فهو يعرفني خير معرفة، خاصة من نظرات عيني المتوسلة المتجهة إلى الأرض. اختصر عليّ الطريق وبادر بسؤاله الحازم:

"هيّا، أنجز يا معاذ. أخبرني ماذا تريد؟ فأنا على عجلة من أمري وليس لديّ مُتسع من الوقت."

لم أنبس بكلمة واحدة، واكتفيت بالنظر لأعلى نحو الهاتف الذي يحمله مالك في يده، وأشرت إليه دون أن أقول شيئًا. فرد مالك فورًا، وهو يزداد تصميمًا:

"لا... انس. أنت تطلب المستحيل، هذا الهاتف لا يفارقني أبدًا، فحياتي تتوقف بدونه."

شعرت بخيبة أمل كبيرة، وطأطأت رأسي للأسفل وهممت بالانصراف ومغادرة الغرفة، معتقدًا أن الأمر قد انتهى. لكن مالك لحق بي قبل أن أفتح باب الغرفة، ومد يده وربت على كتفي بحنان، ثم ناولني هاتفه قائلًا:

"ولكن من حقي أن أعرف لماذا تريد هاتفي، أليس كذلك؟"

رفعت رأسي وبدأت أشرح له أسباب طلبي. أخبرته بقصة السفر لزيارة عمنا في الكونغو الديمقراطية، وكشفت عن خطتي لتوثيق الرحلة بالتقاط الصور والفيديوهات من داخل غابات الكونغو. أوضحت له أن هذه المواد ستساعدني في كتابة أحد المقالات التي أنوي نشرها على موقعي الإلكتروني، وهو موقع يركز على قضايا البيئة ومشكلات المجتمع.

تأمل مالك حديثي للحظات قبل أن يبتسم بدوره ويقول: "حسنًا، أعتقد أن هذا سبب مقنع بما فيه الكفاية. لكن أرجو أن تعيد لي الهاتف سالمًا!"

طبعتُ قبلة صغيرة على جبين أخي، ذلك الجبين الذي طالما عكس حكمته وطيبة قلبه. كان مالك دائمًا مصدرًا للقوة والحنان في حياتي، ذلك الصديق الذي لم يتردد يومًا في مد يد العون لي. استرجعت لحظات عديدة وقف فيها بجانبي، يشجعني على النهوض بعد كل كبوة، ويوجهني نحو الطريق الصحيح بحكمة وهدوء.

شعرت برغبة غامرة في التعبير عن امتناني العميق له، فقلت له بصوت امتزج فيه الحنان والعرفان:

"لن أنسى لك هذا الجميل يا مالك، ولا المعروف الذي أسديته لي، مهما طال العمر وتوالت السنون. أنت دائمًا نبع دعم لا ينضب بالنسبة لي."

ابتسم مالك ابتسامته الدافئة التي لطالما أشعرتني بالاطمئنان، وربت على كتفي قائلاً: "أنت أخي يا معاذ، وما أفعله لك ليس سوى واجبي. المهم أن تستفيد من هذه الفرصة وتحقق أفضل ما يمكن، لأنني أؤمن بك وبما تستطيع تحقيقه."

شعرت بتلك الكلمات تغمرني بالطاقة والحماس، وكأنها شحنة إضافية من الثقة. كان أخي بالنسبة لي نموذجًا للوفاء والتفاني، ومصدرًا دائمًا للإلهام في حياتي. وداخل أعماقي، عقدت العزم على رد الجميل له يومًا ما، وعلى أن أجعل كل فرصة أحظى بها تُثبت صحة إيمانه بي.

خرجت من الغرفة ممتلئًا بالفرحة والانتصار، وكأنني أحرزت نصرًا عظيمًا في معركة طويلة. كنت أحمل الهاتف بين يدي بحذر وكأنني أحمل كنزًا ثمينًا، أتفحصه بعيني بدهشة وامتنان. شعرت بسعادة غامرة عندما أدركت أن الهاتف مزود بتطبيق **GPS**، ذلك النظام العالمي لتحديد المواقع الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية المنتشرة في مدار الأرض، مما يضمن تغطية شاملة لكل مكان.

بدأت الأفكار تزدحم في رأسي، وأنا أتصور كيف سيكون لهذا التطبيق دور أساسي في رحلتي القادمة. تخيلت استخدامي له أثناء التنقل بين الغابات والمناطق غير المعروفة، يساعدني على تحديد الاتجاهات والوصول إلى الأماكن بدقة وسهولة. بدا الأمر وكأنه قطعة من التقنية الحديثة التي ستكون رفيقتي في مغامرة لا تُنسى.

كلما اقترب موعد السفر، زادت حماستي. كنت أُفكر في تفاصيل الرحلة وما قد أواجهه هناك من مغامرات ومفاجآت، وأخطط لكل خطوة. لم يكن الأمر مجرد رحلة، بل بداية لتجربة ستُضيف إلى شخصيتي وخبرتي في الحياة.

لم أكن أجرؤ على إخبار أبي بما خبأته في حقيبتي. كان أبي يضع قواعد صارمة لا يمكن مناقشتها، ومنها أن الهاتف الذكي لا يليق بشاب في مثل سني، فكيف بالقوس والأسهم؟ بالنسبة له، هذه الأمور تأتي فقط مع "النضج"، عندما يدخل الابن الجامعة ويصبح رجلاً في أعين العائلة. لكن بالنسبة لي، حمل القوس كان يعني أكثر من مجرد مغامرة؛ كان يعني التعبير عن شجاعتي وقدرتي على الاستقلال.

أخفيت القوس والأسهم بين ملابسي في الحقيبة، مغلفًا إياها بعناية كي لا تُكتشف بسهولة. كنت أخطط لاستخدامها لصيد أرنب بري، وأردت أن أعود بهذا الأرنب كدليل على نضجي ومهارتي، ليعلم أبي أنني لم أعد طفلاً كما كان يعتقد.

فرغت من تجهيز الحقيبة مبكرًا، ووجدت نفسي أمام وقت فراغ. قررت أن أستغله بأكبر شكل ممكن، فتوجهت إلى مكتبتي الصغيرة والتقطت أحد الكتب المخصصة لتعلم اللغة الفرنسية. كنت أعلم أن الكونغو الديمقراطية هي من أكبر الدول الناطقة بالفرنسية، وكنت أرغب في التواصل مع سكانها والاندماج في ثقافاتهم.

استغرقني الأمر ساعات من الغوص في القواعد ومتابعة فيديوهات تعليمية على الإنترنت، وتكرار الكلمات والعبارات حتى أتقنتها بشكل مقبول. شعرت أن كل لحظة في تعلم اللغة كانت تهيئني لمغامرتي الكبرى.

حين حان موعد السفر، تجمع أفراد عائلتي لتوديعنا. كانت أمي تحمل مزيجًا من الفخر والقلق في عينيها. احتضنتني بشدة وقالت بصوت خفيض: "يا معاذ، أنت تعلم أنني أثق بك، لكنني أخاف عليك. أرجوك لا تتخذ قرارات متهورة. اسمع كلام أبيك، فهو يعرف أكثر."

ابتسمتُ رغم شعوري بثقل كلماتها، وحاولت طمأنتها: "لا تقلقي، يا أمي، سأكون على قدر المسؤولية."

لكنها أضافت، وكأنها تخشى أن أنسى: "أعلم أن علاقتك مع أبيك ليست على أفضل حال الآن، لكن ثق بي... يوماً ما ستفهم أن خوفه عليك هو دافع كل شيء يفعله."

ألقت هذه الكلمات عبئًا لطيفًا على قلبي. شعرت بالحب والقلق يمتزجان في نصائحها. رفعت يديها إلى السماء ودعت لنا بالسداد والسلامة، بينما بدأت دموعها تنساب على وجنتيها، ممزوجة بابتسامة دافئة.

غادرنا الشقة في هدوء الصباح الباكر، حيث كانت الشوارع لا تزال نائمة إلا من بعض المارة والسيارات التي تكسرت أضواء مصابيحها على الأرصفة الرطبة. كنتُ أحمل حقيبتي بإحكام، وكأنني أخشى أن أترك وراءها جزءًا من شجاعتي التي حاولت أن أخفي بها ارتباكي. جلس أبي بجواري في سيارة الأجرة، وكانت ملامحه مغلفة بالهدوء المعتاد، لكنه ألقى نظرات خاطفة تجاهي، كما لو كان يحاول قراءة ما يدور في رأسي.

عندما اقتربنا من مطار القاهرة الدولي، تنفّستُ بعمق، وكأن الهواء الذي استنشقه يحمل معه نبضات مغامرتي القادمة. رأيت المطار لأول مرة، وكانت واجهته الزجاجية تتلألأ تحت أضواء الفجر المبكرة، أشبه بلوحة فنية تنبض بالعظمة والجمال. شعرت برهبة اللحظة وأنا أتأمل التصميم الذي يجمع بين العصرية والعظمة، وكأنني أعيش لحظة سينمائية على أرض الواقع.

تسللت نظراتي بين الحشود المتحركة، مزيج من العائلات تودّع أحبابها بعناق دافئ، ومسافرين من مختلف الجنسيات والأعمار، يجرّون حقائبهم وكأنهم على وشك بداية جديدة. كانت نظراتهم

تتحدث بلغة لا أفهمها، لكنها تحمل بين طياتها قصصًا لم تُحكَ بعد. أما أنا، فكنت أشعر وكأنني أخطو نحو عالم مجهول تمامًا، عالم يتخطى كل توقعاتي.

داخل المطار، وقفنا أمام مكتب تسجيل السفر حيث كان الموظف ينهي إجراءاتنا بسرعة ودقة. حاولت أن أضبط نظراتي التي كانت تتجول في المكان بلا توقف، تلاحق كل التفاصيل، من عجلات الحقائب التي تلمع تحت الأضواء، إلى زيّ الموظفين الرسمي الذي بدا وكأنه يعكس هيبة المكان ونظامه.

حتى صوت الإعلانات الذي يتردد في أرجاء المكان كان له وقع خاص عليّ، وكأنه يخاطبني شخصيًا، يحفز في داخلي تلك المشاعر المتناقضة بين الحماس والخوف. شعرت بأنني جزء من هذه اللوحة الحيّة، وأن كل زاوية في المطار تحمل نبضًا ينتظر أن يُكتشف.

عندما نادى المذيع عبر النظام الداخلي على رحلتنا، شددت قبضتي على حقيبتي ، وشعرت بدقات قلبي تتسارع. تبعت أبي نحو بوابة الصعود إلى الطائرة، وهناك، وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام هذا الجسد المعدني العملاق الذي يتحدى قوانين الجاذبية. كنت أنظر إلى الطائرة كما ينظر طفل إلى لعبة متقنة الصنع، مليئة بالأسرار. تصميم الطائرة بدا وكأنه تجسيد لعبقرية العقل البشري؛ مقدمة زجاجية تلتمع تحت أشعة الشمس، جناحان يمتدان بثقة يحتضنان المحركات، وذيل طويل يوحي بالقوة والاتزان.

صعود الطائرة كان لحظة مهيبة بالنسبة لي. شعرت أن كل خطوة على السلم تأخذني أبعد عن الأرض وأقرب إلى أحلامي. عندما دخلت كابينة الركاب، بدا الأمر وكأنني انتقلت إلى عالم آخر، إلى صالة سينما فاخرة. المقاعد المصفوفة كأنها صفوف جنود مستعدين لأخذنا إلى السماء، النوافذ الدائرية الصغيرة، والأجواء المنضبطة جعلتني أشعر بالرهبة والفضول في آنٍ واحد. لم أفوّت فرصة اختيار المقعد المجاور للنافذة، فقد كنت أرغب في رؤية العالم من منظور لم أعهده من قبل.

عندما اقلعت الطائرة وبدأت بالارتفاع، شعرت كأن روحي ترتفع معها. نظرت عبر النافذة ورأيت السحب تتراقص خلف جناح الطائرة، وهي تسبح في سماء بلون أزرق صافٍ، وأشعة الشمس تنساب برفق بين تلك الوسائد البيضاء. كان المشهد مدهشًا، أشبه بحلم يتحقق. إلى جانبي، كان أبي منشغلاً بقراءة صحيفته، يحرك صفحاتها ببطء بينما تظهر على وجهه ملامح التركيز الصارمة التي اعتدت عليها. شعرتُ بحضور والدي بجواري يبعث في نفسي خليطًا من الطمأنينة والتوتر. كنت أقدر قربه، لكنه الصمت الذي يشبه جدارًا غير مرئي بيننا كان يُربك أفكاري.

ترددت للحظة وأنا أُفكر: "هل يجب أن أفتح موضوعًا معه؟ كيف سيستجيب؟ هل سيقدر محاولتي لكسر هذا الجمود؟" استجمعت شجاعتي، أزحت بصري عن النافذة، وقلت بنبرة خافتة وكأنها

محاولة لاختبار الأرض: "أبي، أتعلم؟ رؤية هذا المشهد تجعلني أفكر كم هي كبيرة الحياة هناك... في الكونغو، وفي هذا العالم."

رفع أبي عينيه عن الصحيفة ببطء ، وابتسامة صغيرة تملأ وجهه، وعلق قائلاً : "أجل يا معاذ، الحياة دائمًا أكبر مما نتخيل، والسفر يجعلنا نرى ذلك بعين أخرى." شعرت أن كلماته تحمل في طياتها رسالة عميقة، وكأنها جسر صغير بدأ يُبنى بيننا وسط هذا الصمت. ربما لم يكن يعبّر عن مشاعره كثيرًا، ولكنه في هذه اللحظة كان يفعل، حتى لو بشكل غير مباشر. قلت بحماس: "أعلم يا أبي، وأنا ممتن لهذه الفرصة. أريد أن أثبت لك أنني أستطيع تحمل المسؤولية."

نظر إلي للحظة، وكأنه يحاول قراءة ما وراء كلماتي، ثم قال: "المسؤولية لا تعني فقط أن تُثبت شيئًا لي أو لغيري. هي أن تكون قادرًا على اتخاذ القرارات الصحيحة حتى في أصعب الظروف."

هززت رأسي موافقًا، وأنا أعده داخلي أن أكون على قدر توقعاته. كانت هذه اللحظة الصغيرة، بين الطائرة والسحاب، أشبه بجسر يربط بين جيلين، بين تجربة الأب وطموح الابن.

في تلك الأثناء، مرّت المضيفة بابتسامتها الودودة تسأل الركاب إن كانوا بحاجة إلى شيء. رفعت يدي بحذر وطلبت كأسًا من العصير. ردّت بابتسامة قائلة: "هل هذه رحلتك الأولى؟"

ابتسمت بخجل وأجبت: "نعم، وهي أكثر مما توقعت. الطائرة... كل شيء مذهل."

قالت وهي تضع الكأس أمامي: "رحلتك الأولى دائمًا تكون استثنائية. استمتع بكل لحظة."

شعرت بدفء كلماتها وكأنني لم أغادر بيتي، بل كنت ضيفًا في عالم مضياف وكأنها جزء من الحكاية التي بدأت للتو. لم يكن التفاعل معها مجرد طلب بسيط، بل رسالة ضمنية بأن هذه الرحلة تحمل في طياتها الكثير من المفاجآت.

خلال الرحلة، استسلمت إلى الراحة تدريجيًا. شغلت الشاشة الصغيرة أمامي، واخترت فيلمًا كرتونيًا ليذكرني بجزء من طفولتي. شعرت بالحنين، لكن ذلك الحنين كان ممزوجًا بحماسة لما هو قادم.

بعد ساعات طويلة ، بدأت الطائرة في الانخفاض استعدادًا للهبوط. أعلنت المضيفة عبر مكبر الصوت أننا نقترب من كينشاسا،

عاصمة الكونغو الديمقراطية. عندها، ربطت حزام الأمان كما طُلب. لم أكن أعي أن الساعة تجاوزت الخامسة مساء عندما تطلعت من النافذة، فرأيت المدينة تضيء كنجوم صغيرة متناثرة على بساط أسود . كان الليل قد أقبل بهدوء، ومعه شعرت بقشعريرة تجتاحني، مزيجًا من رهبة المجهول وفضول المغامرة التي تنتظرني في هذه الأرض الجديدة .

***

الوصول إلى منزل العم

عندما هبطنا درج الطائرة، أطلقت نظراتي نحو المدرج وأرجاء المطار، وتملكني إحساس غامر بالتقدير لهذا الابتكار العظيم الذي وفّر لنا الوقت والجهد. قلت لأبي، وقد كانت مشاعري تنساب بحرية: "أوه عجبًا، يا أبي، لقد قصّرت الطائرة المسافات وربطت بين أجزاء العالم حتى أصبح بالفعل كقرية صغيرة. أتعلم؟ لقد أصبح بإمكان الإنسان الآن أن يلف العالم كله في أيام معدودة، بل ويصل إلى الفضاء في مكوكات وصواريخ."

ابتسم أبي وأجابني بصوت هادئ وهو يضع يده على كتفي: "هذا صحيح يا بني. الحياة قد تغيرت كثيرًا. كان الناس في الماضي يسافرون بالجمال والبغال، وكانت رحلاتهم تستغرق شهورًا وأحيانًا سنوات للوصول إلى مقاصدهم. ثم ظهرت العربات الخشبية والقطارات، لكنها لم تصل بنا إلى هذه السرعة والراحة التي نعيشها اليوم."

ضحكت وأنا أقول: "تخيّل، يا أبي، لو لم تكن لدينا هذه الاختراعات. ربما كنا الآن نسير على أسنمة الجمال وسط الرمال الساخنة، والشمس تحرق جلودنا، في طريقنا إلى الحدود الجنوبية لمصر ومنها إلى السودان ومن ثم الكونغو!"

انفجر أبي ضاحكًا وقال، وهو يتخيل المشهد: "وربما كنا نتوه في تلك الصحراء الجرداء التي لا ماء فيها ولا زرع، أو نخاف على حياتنا من ذئاب الصحراء المتوحشة. ومن يدري، قد نكون قصة تُروى في خبر كان!"

أدركت في تلك اللحظة أن أبي يحمل ذكريات عن الماضي والقصص التي كان يسمعها ممن سبقوه. شعرت أننا، رغم تقدم الزمان وتغير الأوقات، لا نزال نحمل ذلك الاحترام والرهبة للرحلات الطويلة وتجارب الأجداد الذين مهدوا لنا طرق الحياة الحديثة.

***

بينما هبطنا درج الطائرة، كانت الابتسامات ترتسم بوضوح على وجوهنا، وكأنها انعكاس لحماسة اللحظة. كنت أسمع ضحكاتنا تتعالى، تكسر الصمت المهيب الذي كنت أشعر به منذ بداية الرحلة. وعندما لامست قدماي أرض كينشاسا، كان هناك شعور لا يمكن وصفه. كل شيء كان يوحي بأنني أضع قدمي على بداية طريق جديد.

مطار كينشاسا الدولي بدا أمامي مذهلًا؛ تصميمه العصري، والأضواء التي تنعكس على الجدران الزجاجية، والحركة المستمرة للأشخاص داخله أعطتني انطباعًا بأنه عالم لا يهدأ. بدا وكأن كل شخص هنا يحمل حكاية خاصة، البعض في عجلة للحاق بطائرتهم، والبعض الآخر ينهي إجراءات وصوله. شعرت أنني في خلية نحل عملاقة، حيث الحياة تستمر بلا توقف ولا انتظار.

أثناء سيرنا في طريقنا إلى صالة الوصول، كانت هذه الأفكار تتوالى على رأسي كأمواج صغيرة. كنت أتأمل في الزمن الذي يمضي دائمًا للأمام دون أن ينظر خلفه، وكيف أن الحياة تشبه إلى حد كبير هذا المطار؛ مليئة بالحركة، دائمًا في تقدم.

وما إن وصلنا إلى صالة الوصول حتى رأيت عمي مراد واقفًا هناك. بمجرد أن التقت أعيننا، كان الأمر وكأن الزمن عاد بنا إلى الوراء، إلى اللحظات التي كنا نقضيها معًا في الماضي. عانقنا عناقًا طويلًا، ذلك النوع من العناق الذي يحمل في طياته سنوات من الشوق.

لكن لا شيء يُخفي علامات الزمن. يا إلهي، كيف تغير عمي! شعره الذي كان أسود اللون تحول الآن إلى خليط من الأبيض والرمادي، ووجهه الذي كان مشرقًا دومًا ارتسمت عليه تجاعيد الزمن. ورغم ذلك، عيناه كانتا تحملان نفس البريق الذي عرفته دائمًا، نفس الروح المرحة التي تملأ المكان.

قال عمي وهو يبتسم ابتسامة واسعة: "أهلاً يا معاذ! لقد كبرت وأصبحت شابًا وسيماً! أين ذهبت تلك الأيام التي كنت فيها صغيرًا تركض حولي بلا كلل؟"

ضحكت وأجبته: "وأنت يا عمي، لم أكن لأعرفك لولا ضحكتك. كيف تحملت كل هذه التغيرات؟"

ردّ بحماسة: "العمل هنا يا بني، يعلمك الكثير. يجعلك ترى الحياة كما هي، بحلوها ومرّها، لكنه يعيد تشكيلك بطريقة ما. لا تقلق، الروح هي ما يظل كما هو."

كنت أستمع إلى كلماته وأنا أشعر بمزيج غريب من الهدوء والرهبة. هذا العالم الجديد الذي أكتشفه يحمل الكثير، وأعرف أن هناك المزيد ينتظرني.

ومع ذلك، لم أستطع تجاهل شعور داخلي بدأ يتصاعد شيئًا فشيئًا. هذا المكان، المكتظ بالناس من كل جنس ولون، جعلني أشعر بالاختناق. الجموع تتحرك بلا توقف، كل شخص يبدو أنه يعيش في عالمه الخاص. الأصوات من حولي تداخلت بشكل أصبح يصعب عليّ تحمله. شعرت بحاجة ملحة إلى المغادرة، إلى الخروج من هذا الصخب الذي يبدو وكأنه يبتلعني.

كنت أحتاج إلى السكينة. إلى لحظة أكون فيها بعيدًا عن كل هذا الضجيج، حيث يمكنني أن أتأمل الطبيعة الحالمة كما أحبها. الطبيعة لا تحتاج إلى كلمات تافهة أو أحاديث فارغة؛ هي تتحدث بلغة التناغم. صوت الرياح بين الأشجار، غناء الطيور، وهدوء المياه

الجارية يملأني بالطمأنينة. في تلك اللحظات، أجد نفسي كما أنا حقًا، بعيدًا عن كل قيود العالم الخارجي.

كلما زادت ضوضاء الناس حولي، شعرت برغبة أشد في الانسحاب، في الجلوس تحت ظل شجرة ومراقبة أشعة الشمس وهي تتسرب بين الأوراق. أعلم أن هذه اللحظة ستأتي قريبًا، وستكون بمثابة علاج لي، تُعيد لقلبي وروحي التئامهما الذي فقدتهما وسط هذا الصخب.

هممنا بالرحيل تاركين خلفنا أجواء المطار الصاخبة، وتبعني كل من أبي وعمي إلى الخارج، حيث كان النسيم البارد يُلامس وجهي برفق، وكأنه يُهنئني ببداية هذه المغامرة. ركبنا جميعًا إحدى سيارات الأجرة التي كانت تنتظرنا، وانطلقت بنا نحو منزل عمي مراد، القريب من الغابات حيث يزاول عمله.

منذ أن بدأت السيارة تتحرك، لم أستطع أن أمنع نفسي من إخراج رأسي من النافذة، وكأنني أحاول احتواء كل ما أراه أمامي. شوارع كينشاسا كانت واسعة بشكل لافت، تُحاكي في سعتها الحلم الكبير الذي يسكن المدينة. لكنها كانت مكتظة بالسكان، يعبرون الطرق هنا وهناك بلا توقف، يملأون كل زاوية؛ بعضهم مستعجل يعبر الشارع بحذر، وبعضهم ينتظر بصبر عند المحطات، وآخرون يتجولون بين المحال التجارية التي تزين جانبي الطريق بواجهاتها الملونة.

كل تلك الحيوية ذكرتني بمدينة القاهرة، حيث يعرف الشارع نفس الازدحام ونفس الروح الصاخبة التي لا تهدأ. لكن في كينشاسا، كان

هناك شيء مختلف. لم أستطع منع نفسي من التساؤل بصوت مسموع: "لماذا تُعد هذه المدينة مزدحمة جدًا بالسكان؟ يبدو أن الحياة هنا لا تتوقف أبدًا!"

كان عمي مراد يراقب الطريق أمامه، لكنه لم يتأخر في تقديم الإجابة، وبصوته الهادئ قال: "الأمر بسيط يا معاذ. سكان القرى الكونغولية يأتون إلى المدن هربًا من الفقر والجوع، والبحث عن فرص حياة أفضل. يتطلعون إلى وظائف في المصانع أو القطاع الحكومي، ومع ذلك، البطالة تنتشر هنا بسرعة بسبب العدد المتزايد للسكان."

ثم أضاف بنبرة يملؤها التفكير: "تعداد السكان في كينشاسا وصل إلى حوالي سبعة ملايين ونصف نسمة، مما يجعلها ثالث أكبر مدينة في إفريقيا بعد لاجوس والقاهرة من حيث عدد السكان. هنا، تُعاد صياغة قصص الكفاح اليومي."

كلامه أثار لدي شعورًا غريبًا، كأن مشاكل المدينة تختصر حكايات ملايين الأشخاص الذين يكافحون لأجل البقاء. لكن في داخلي كنت أخاطب نفسي، دون أن يسمع أحد: "مشكلات مثل الفقر والنزوح ليست حكرًا على كينشاسا. إنها مشكلات عالمية، تحملها المدن الكبرى في كل مكان."

وفي أثناء انشغالي بهذه الأفكار، لفت انتباهي تصميم المباني السكنية في كينشاسا. كانت بعض المنازل عبارة عن شقق سكنية فاخرة، مكونة من طابقين أو أكثر، تحيط بها حدائق خضراء تُضيف لمسة من الجمال والرفاهية. كانت تلمع تحت ضوء الشمس كأنها جواهر مبعثرة وسط المدينة. تحديقي الطويل بها لم يخفَ عن عمي، الذي ابتسم وقال وهو يشرح: "هذه المساكن يا معاذ، يسكنها الأثرياء فقط، من رجال الدولة أو كبار التجار. أما غالبية السكان من الفقراء والفلاحين، فإنهم لا يقتربون منها، بل يكتفون بالنظر إليها من بعيد، تمامًا كما ينظرون إلى متاحف أثرية."

كلماته كانت صادمة بالنسبة لي، لكنها كانت واقعية. جعلتني أدرك الفجوة الكبيرة التي تفصل بين طبقات المجتمع، تلك الجدران العالية للمنازل الفاخرة التي تحمل بداخلها معاني النجاح لبعضهم، لكنها تبدو حلمًا بعيد المنال للآخرين.

السيارة استمرت بالسير، وأنا أُحاول أن أجمع بين كل ما رأيته وما سمعته. كنتُ على يقين بأن هذه المدينة تخفي الكثير من القصص، بعضها يُحكى بصوت عالٍ في الشوارع، وبعضها الآخر يبقى مدفونًا خلف جدران المنازل أو تحت ظلال الغابات التي تنتظرنا.

تركنا وراءنا شوارع كينشاسا المزدحمة وصخبها الذي يملأ الأفق، وكأننا ننتقل من عالم مضطرب إلى آخر يسوده الهدوء لكنه مليء بالغموض. عندما انعطفت السيارة يمينًا ودخلنا إلى أحد الطرق الفرعية الضيقة، شعرت على الفور بالتغيير. الطريق كان مليئًا

بالالتواءات والانحدارات، أرضيته غير ممهدة، تحمل آثار المطر والحياة اليومية التي تمر فوقه بلا هوادة.

السيارة بدأت تتخبط وكأنها تحاول التكيف مع المطبات والحفر الكثيرة التي تغمر هذا الطريق. مع كل قفزة أو هبوط، كنت أشعر بالاهتزاز يسري في جسدي، حتى أنني أحيانًا كنت أنزلق إلى أسفل المقعد، أو أقفز للأعلى مع حركة السيارة وأصطدم بسقفها الضيق. رأسي بدأ يؤلمني من كثرة الاصطدامات، لكنني اخترت الصمت. لم أرغب في إظهار أي نوع من الاستياء أو التعب، فهذا كان اختياري منذ البداية، ولم أكن على استعداد للتراجع الآن.

رغم كل هذه الصعوبة، كانت هناك لحظات من السكينة تتسلل إليّ. عندما نظرت من النافذة، بدأت أشجار كثيفة تظهر على جانبي الطريق، وكأنها حراس للطبيعة يراقبون كل من يمر عبر هذا المكان. النسيم البارد الذي يُلامس وجهي كان يحمل معه رائحة الأرض الرطبة بعد المطر، رائحة تحمل في طياتها نوعًا من السلام الذي كنت أبحث عنه.

بينما كانت السيارة تستمر في تخبطها، وجدت نفسي أفكر في الطريق ذاته. الطريق كان صعبًا، مليئًا بالتحديات، لكنه يقودنا إلى وجهة تستحق العناء. شعرت بأن هذا الطريق يشبه الحياة نفسها؛ لا تخلو من الانحدارات والمطبات، لكنها في النهاية تأخذنا إلى حيث نجد أنفسنا، إلى حيث نحقق ما نريد.

بدا لي أن الطبيعة كانت ترحب بي بطريقتها الخاصة. أشجار الموز الشاهقة، والنباتات البرية التي تنبت بحرية، وحتى الطيور التي تحلق فوقنا، كلها كانت وكأنها تقول لي: "مرحبًا بك في عالم مختلف، عالمنا."

استمر الطريق في اختبار صبري، لكنني كنت ممتنًا لكل لحظة، ولكل ارتداد. كنت أعلم أنني أقترب من شيء أعظم، شيء كنت أبحث عنه منذ وقت طويل.

ما إن وصلنا إلى منزل عمي حتى شعرت باندهاش لم أتمكن من إخفائه. لم أكن أتوقع أن يكون المنزل بهذه البساطة التي تحمل في طياتها لمسة من الجمال المتواضع. بدا أمامي كأنه كوخ صغير يشع دفئًا، مبنيًا من الطوب الطيني الذي يلتصق به الزمن، وسقفه المكون من الخشب والقش وأعواد حطب الذرة يمنحه مظهرًا ريفيًا أصيلًا. كان للمكان نافذتان زجاجيتان أماميتان، تعكسان ضوء الشمس كأنهما عينان للمنزل تتطلعان إلى الخارج.

عندما دخلت المنزل، استقبلتني رائحة مميزة للخشب والتراب الطيني، رائحة تمنح إحساسًا بالراحة رغم تواضع كل شيء. الأثاث كان بسيطًا للغاية؛ بعض الكراسي المصنوعة يدويًا، طاولة صغيرة، وأسرّة خشبية مغطاة بأغطية مزركشة بألوان هادئة. كان المكان مرتبًا ونظيفًا بشكل يثير الإعجاب، وكأن كل قطعة في هذا المنزل الصغير قد تم ترتيبها بحب وعناية.

لكن، حين نظرت عبر النافذة، رأيت شيئًا مختلفًا. منازل الجيران كانت أبسط بكثير، بعضها يشبه الخيام، متراصة في الخلاء كأنها لوحات صامتة تحكي عن قسوة العيش. شعرت بأن منزل عمي كان خطوة متقدمة بالنسبة لما رأيته حوله، لكنه لا يزال يحاكي بساطة الحياة هنا.

ابتسم عمي وهو يلاحظ نظراتي المتأملة وقال: "أعلم أن المنزل يبدو بسيطًا، لكنه يكفيني. هنا، لا يحتاج الإنسان للكثير كي يعيش. الحياة بسيطة، والطبيعة من حولنا تعوض عن كل شيء."

كلماته كانت صادقة، تحمل معها فلسفة تُذكرني بأن البساطة غالبًا ما تكون مفتاح السعادة. شعرت بنوع من الاحترام لهذا المكان، لهذا الكوخ الصغير الذي رغم تواضعه، يحمل روحًا تسكنه تجعل كل زاوية فيه تنبض بالحياة.

تناولنا عشاءً خفيفًا، كان بسيطًا ولكنه محمّل بالنكهات اللذيذة والرائحة العطرة التي ملأت المكان وأثارت شهيتي المتأججة بعد ذلك اليوم الطويل المرهق. مع كل لقمة، شعرت بأن هذا الطعام ليس مجرد وجبة بل كان دعوة للراحة والسكينة بعد كل ما مررنا به.

بعد انتهاء العشاء، تركت أبي وعمي في الصالة يتبادلان أطراف الحديث. بدا الحديث بينهما وكأنه لقاء بين عالمين؛ أحوالنا في مصر وقصصه في الكونغو.

لكنني كنت قد وصلت إلى نقطة الإنهاك ، حيث لم تعد قدماي قادرة على حملي ولا عيناي تستطيعان مقاومة ثقل النعاس.

توجهت إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تفتح بابها على الصالة من جهة اليمين. كانت بسيطة جدًا، لكنها بدت وكأنها ملاذ مثالي لعزلة قصيرة بعد يوم مليء بالأحداث. عندما خطوت نحوها، شعرت وكأن كل ركن فيها يهمس لي بدعوة لطيفة للراحة.

الجدران الطينية التي تغطي الغرفة تضفي عليها دفئًا عتيقًا وكأنها تحتضنني، بينما السقف المنخفض يعزز الإحساس بالسكينة. الفراش الصغير، الذي بالكاد يسع فردًا واحدًا، بدا وكأنه ملاذ لي لألقي عليه عبء يومي. استنشقت الهواء الذي يحمل عبق الطين والرطوبة، فشعرت وكأنني عدت إلى زمن أكثر بساطة وجمالاً.

بينما كنت أتحرك ببطء، أرهقتني أفكاري التي كانت تدور في رأسي: "أبي وعمي سيتكيفان بالطبع في الغرفة المقابلة لغرفتي. منزل عمي صغير جدًا، غرفتان فقط للنوم، ولكنني متأكد من أن عمي، بروح الضيافة التي يُعرف بها، سيتنازل عن فراشه لأبي وينام على الأريكة المريحة في الصالة."

لم أشغل نفسي كثيرًا بهذه الأفكار، فقد كان الإرهاق يغلبني، بينما كنت أتأمل كل تفاصيل الغرفة الصغيرة. رأيت المروحة القديمة معلقة في السقف تدور ببطء، وسمعت صوت الرياح الخفيفة وهي

تتسرب من النوافذ الصغيرة المطلة على حديقة مليئة بالنباتات البرية. رغم بساطة المكان، شعرت أنه يحمل نوعًا من الحميمية والدفء الذي يطلب مني أن أترك وراءه كل همومي وقلقي وأسترخي تمامًا.

بإرهاق ثقيل، ألقيت بجسدي على الفراش، فكانت كل ألياف جسمي تطالب براحة مستحقة. لم أستطع منع نفسي من إغلاق عينيّ تدريجيًا، بينما تلاشت ملامح الجدران الطينية والسقف المنخفض من ذاكرتي.

مع ذلك، وصل إلى أذني صوت خافت من الصالة؛ حديث أبي وعمي الذي يتخلله ضحكات خفيفة دافئة. شعرت أن تلك الضحكات تنساب عبر الغرفة، تضيف دفئًا آخر إلى المكان، وتُغرقه بروح عائلية لطالما كانت مصدرًا للأمان.

رغم الألم الطفيف الذي ما زال عالقًا في رأسي نتيجة الاصطدام بسقف السيارة أثناء الرحلة، شعرت براحة لا توصف. كنت أعلم أنني عبرت تحديات اليوم، وها أنا على أعتاب بداية جديدة.

وبينما أغلقت عيناي، بدأ النوم يجذبني سريعًا إلى أعماقه، دون أن أتمكن من مقاومته. لم يكن هناك مجال لأي تأملات طويلة أو قلق حول اليوم التالي. رحلت إلى سبات عميق، تاركًا خلفي عالم اليقظة ليحملني عالم الأحلام، لا أسمع إلا همسات الليل الهادئة وصدى

تعب الرحلة في جسدي. حتى أشرقت شمس اليوم الجديد، شقّت خيوط الضوء طريقها عبر النافذة الصغيرة، وكأنها تعلن بداية مغامرة جديدة تنتظرني.

بدأ اليوم الجديد يتسلل بهدوء إلى غرفتي، حيث كانت أشعة الشمس الذهبية تخترق نافذتها الصغيرة برفق، وكأنها تُداعبني برغبة لطيفة للاستيقاظ. لم يكن بإمكاني تجاهل هذا الدفء، شعرت أن الشمس تحمل معها دعوة مفعمة بالحيوية والانطلاق. رغم استسلامي لبعض الكسل الذي أثقلني في البداية، بدأت جفوني تتفتح تدريجيًا، لتُعلن استعدادي لمواجهة هذا اليوم بكل نشاطٍ وإرادة.

وبينما كنت لا أزال ممددًا على الفراش، تسلّل إلى مسامعي صوت الأطفال في الخارج، يملأ المكان بالحيوية والمرح. كانوا يلعبون كرة القدم بشغف واضح يُشعر كل من يسمعهم وكأن الحياة بأكملها تدور حول ملعبهم البسيط ، كنت أسمع صراخهم وضحكاتهم تعلو وتختلط بأصوات الكرة وهي تصطدم بالأرض والجدران، كأنها جزء من سيمفونية صباحية مليئة بالنشاط.

أصواتهم المرتفعة وضجيجهم العفوي عبر نافذتي كان يردد حكايات شعبية عن حبهم لهذه الرياضة. كرة القدم، هذه اللعبة التي تجمع بين الجميع، كانت بالنسبة لهم ليست مجرد هواية، بل جزءًا من طقوس يومهم المعتادة.

لم يكن ذلك الضجيج مزعجًا بالنسبة لي، بل كان مثل محفزٍ خفي. شعرت أن هذه الأصوات تحمل معها نوعًا من التشجيع الصارخ،

وكأنها تقول لي: "انهض الآن! لا مجال للتباطؤ هنا." كان لهذا الحماس أثره؛ سرعان ما وجدت نفسي أنهض من الفراش باندفاع، مدركًا أنه لا يمكنني أن أسمح لضجيج يومي أن يتأخر عن هذا الحماس المحيط بي.

أثناء ذلك، كانت الكلمات الإنجليزية التي تعجبني تتردد في ذهني: *Time is money*. حكمة صادقة تحمل في طياتها حقيقة الحياة؛ قيمة الوقت لا تُقدر بثمن، وهو مفتاح كل إنجاز ونجاح. شعرت أن هذه المقولة تعكس تمامًا شعوري تجاه أهمية اغتنام الفرص والبقاء مستعدًا لما سيأتي.

وهكذا، بدأت يومي الجديد، حاملًا في داخلي حماسة الأطفال بالخارج وحكمة الشمس التي أشرقت على غرفتي. كنت أعلم أن هذا اليوم يحمل الكثير ليكتشفه، وأنني سأعيش كل لحظة فيه وكأنها ثمينة كالنور الذي أضاء بدايته.

جلسنا حول مائدة الفطور المستديرة المصنوعة من الخشب، وسط أجواء يغلب عليها الدفء والبساطة. كانت المائدة زاخرة بأطباق تعكس نكهة الصباح المصري المألوفة؛ طبق الفول المدمس مع قطرات عصير الليمون التي أضافت نكهة منعشة، والبيض المقلي إلى جوار الطحينة الناعمة، وكوب الشاي باللبن الذي كان بخاره يتصاعد وكأنه يرسم خطوطًا واهنة في الهواء. رغم أن عمي بعيد عن مصر منذ سنوات، إلا أن عاداته في الطعام بقيت وفية لوطنه، كأنه يأخذ معه جزءًا صغيرًا من هويته أينما كان.

تأملت الأطباق أمامي للحظة، ثم رفعت نظري نحو عمي، وأفصحت عن رغبتي بوضوح: "أريد مرافقتك اليوم إلى الغابة، حيث تعمل. أحتاج إلى التقاط بعض الصور وتسجيل مقاطع فيديو للحياة البرية هناك. سيكون هذا مهمًا جدًا لمقالتي عن غابات الكونغو، تلك التي تُعرف بلقب 'رئة العالم الثانية'."

ابتسم عمي ابتسامة خفيفة، ووضع كوب الشاي على الطاولة قبل أن يقول بصوت هادئ: "ولماذا الآن يا معاذ؟ الغابة ليست مكانًا سهلًا، ولست معتادًا عليها بعد."

كنت أعرف أنني سأحتاج إلى تبريرٍ جيد لإقناعه، فتابعت بنبرة مليئة بالحماس: "هذه الغابات، بما تحتويه من أشجار ونباتات، لها دور عظيم. تمامًا كما تفعل الرئة في أجسامنا، تقوم هذه الغابات بتنقية الهواء من ثاني أكسيد الكربون الضار، وتمنحنا الأكسجين. أعتقد أن توثيق هذا الجانب سيكون له أثر كبير في إبراز أهميتها على الصعيد العالمي."

بينما كنت أنتظر رده، كان أبي ينظر إلي بنظرة تعكس مزيجًا من الاهتمام والتحفظ. بادر بالحديث بنبرة هادئة ومتفهمة: "ربما من الأفضل أن نؤجل هذه الرحلة إلى الغد، يا معاذ. نحن ما زلنا متعبين من عناء السفر، والراحة اليوم ستكون خطوة ذكية قبل أن نخوض رحلة مثل هذه."

كان الانتظار يزداد ثقلاً على قلبي، وكأن كل دقيقة تمر تحمل معها إحساسًا بعدم القدرة على البقاء صامتًا. شعرت أن الوقت يمضي، وأنني بحاجة إلى أن أكون هناك، وسط غابات الكونغو الشاسعة، حيث الحياة البرية تنتظر عدستي وأفكاري لتوثيقها.

لم أعد أطيق الجلوس وانتظار قرار أبي أو عمي. حملت حقيبة الظهر التي كنت أضع فيها أدواتي؛ هاتفي، دفتر الملاحظات، وبعض المستلزمات الضرورية، ثم انطلقت خارجًا من المنزل بخطوات سريعة، كأنني أهرب من أي تأجيل أو تردد قد يثنيني عن رغبتي الملحة.

وقفت أمام المنزل، تحت الشمس التي بدأت تصعد تدريجيًا في السماء. كنت أحمل في داخلي حماسًا عارمًا، وأراقب الباب منتظرًا خروج أبي وعمي. كان هدفي واضحًا؛ أن أقطع عليهم أي تفكير طويل أو نقاش إضافي، وأن أُحفزهم على تجهيز أنفسهم والانطلاق معي إلى الغابة سريعًا.

بينما وقفت خارج المنزل، كانت الشمس تواصل صعودها في السماء، ترسل أشعتها الذهبية لتضيء المشهد أمامي. الكونغوليون كانوا يمضون في حياتهم اليومية، بعضهم يتحرك بخطوات ثقيلة، والبعض الآخر يقف في مجموعات صامتة كأنهم يناقشون أحوالهم. الرجال يرتدون قمصانًا وسراويل طويلة تغطي أجسادهم الهزيلة، أما النساء، فكنّ يرتدين فساتين طويلة، تلفّ أجسادهن بوقار، لكنها تخفي في طياتها قصصًا من الكفاح.

كان كل شيء في مظهرهم يشير إلى الفقر المدقع. بشرتهم فاحمة السمرة تحمل آثار الشمس والحر، وأجسادهم الهزيلة تروي صراعًا طويلًا مع الجوع والحرمان. العظام البارزة من تحت الجلد كانت كأنها علامة صامتة تنطق بحجم المعاناة التي يعيشها هؤلاء الأشخاص. ورغم بساطة مظهرهم، كان في عيونهم بريق يحمل شيئًا من الأمل أو ربما مجرد انتظار صامت.

شعرت بخيبة أمل ثقيلة عندما تذكرت أن هذه الأرض الغنية بالخيرات الطبيعية تُعد من أغنى دول العالم بالموارد. الكونغو هي أكبر منتج للكوبالت الخام، ذلك المعدن الرمادي الصلب الذي يعتبر عنصرًا أساسيًا في الصناعات الحديثة. إلى جانب ذلك، هي من أكبر منتجي النحاس والألماس الأبيض، والمصدر لثاني أكبر غابة مطيرة استوائية في العالم، غابات الكونغو التي تُعرف بلقب "رئة العالم الثانية"، لأنها تُنقي الهواء وتُسهم في التوازن البيئي العالمي.

ولكن أمام هذا التناقض، كان سؤال داخلي يُراودني: "لماذا لا تُستغل هذه الموارد لتغيير واقع سكانها؟ لماذا يُسمح للجوع والمجاعات بأن تستمر بينما تمتلك هذه الأرض كل ما يحتاجه شعبها للنهوض بحياتهم؟ هل هو الفساد؟ أم سوء إدارة؟ أم تاريخ طويل من الاستغلال والصراعات التي استنزفت إمكاناتها؟"

كانت الأفكار تتصارع في رأسي بينما أراقب المكان حولي. رائحة الأرض، وأصوات الحياة البسيطة، وصور الأشخاص الذين

يعبرون أمامي، كلما كانت تُغذي هذا الشعور بالاضطراب. حملت حقيبة ظهري بإصرار وأحكمت غلقها، لأستعد لتوثيق ما أراه. كنت أعرف أن هذه اللحظة تستحق أن تُوثق، ليس فقط لتُكتب في مقالتي، بل لتُروى كجزء من القصة الإنسانية لهذه الأرض.

كانت أصوات الأطفال القادمة من داخل الخيام كأنها نداء خفي يختصر معاناة تلك الأرواح الصغيرة. لم تكن مجرد ضوضاء، بل كانت صرخة للمساعدة، صرخة تحمل أوجاع الجوع والضعف. وقفوا في تلك الخيام المتناثرة التي بالكاد تحميهم من قسوة الطبيعة، وعيونهم تبحث عن أمل قد لا يعرفونه. شعرت بشيء غريب في داخلي، مزيج من الحزن والغضب والإنسانية التي رفضت أن تقف متفرجة.

دفعني هذا الإحساس إلى التحرك نحوهم، محاولة التواصل معهم بلغتي الفرنسية المتواضعة. كلمات بسيطة خرجت من شفتي، محملة بالنية الصادقة لفهم احتياجاتهم. أخرجت بعض الجنيهات المصرية من حقيبتي، معتقدًا أنها قد تحمل لهم شيئًا من الراحة، لكنها كانت بلا جدوى. نظرت إلى وجوههم المرتبكة، وعرفت سريعًا أن هذه العملة لا تساوي شيئًا هنا. الفرنك الكونغولي هو العملة المتداولة، والجنيه المصري بالنسبة لهم مجرد أوراق غريبة لا قيمة لها.

شعرت بالعجز في تلك اللحظة، لكنه لم يكن عجزًا يُثنيني عن المحاولة. عدت إلى المنزل بسرعة، خطواتي تحمل تصميمًا لا يُقهر. كنت أتحرك بعفوية، كأن قوة داخلية تقودني نحو هدف واحد: إيجاد طريقة أخرى لمساعدة هؤلاء الأطفال الذين يُصارعون

الجوع. دخلت المنزل كالإعصار، حيث كان عمي وأبي يستعدان للخروج. تفاجئا برؤيتي وأنا أندفع مباشرة نحو المطبخ، دون حتى أن أشرح لهم ما يحدث.

بدأت أفتح الخزائن وأجمع كل ما تقع عليه يدي. أكياس من الأرز، والدقيق، والذرة، وزجاجات اللبن للصغار. لم يكن هناك مجال للتردد أو طلب الإذن. كنت أضع كل شيء داخل أكياس بلاستيكية بسرعة، وكأنني أحاول اللحاق بفرصة لن تُتاح مرة أخرى. لمحت عمي يقف في الزاوية، ينظر إليّ بدهشة، لكنه لم يقل شيئًا، ربما لأن ملامحي كانت تتحدث بصوت أعلى من أي كلمات.

خرجت من المنزل محملًا بتلك الأكياس، شعرت بثقلها لكن الروح داخلي كانت خفيفة. عندما وصلت إلى الأطفال، قدمت لهم الطعام، وكانت نظراتهم تحمل دهشة عميقة، كأنهم لم يتوقعوا أن يحمل اليوم لهم شيئًا مختلفًا. بدأت أسمع كلماتهم الفرنسية البسيطة، " Merci pour votre aide, monsieur." تلك العبارة الصغيرة كانت كافية لأن تُشعل في داخلي إحساسًا بالرضا، وكأنني وجدت معنى أعمق لهذه الرحلة.

وفي تلك اللحظة، لم يكن الطعام الذي قدمته مجرد مساعدة مؤقتة، بل كان جسرًا صغيرًا يربطني بهؤلاء البشر الذين يعيشون في عالم مختلف عن عالمي. عالم مليء بالتحديات، لكنه يحمل في داخله روحًا لا تنطفئ، تبحث دائمًا عن بصيص أمل.

تلك اللحظة، حين وقفت أمام وجهيّ عمي وأبي، كانت مثقلة بالصمت الذي حمل معه كل المعاني. لم أستطع رفع نظري إلى عينيهما، إذ كانتا تُطوقانني بنظرات مليئة بالدهشة والذهول. ربما كانا يحاولان استيعاب المشهد: المطبخ الذي تركته شبه فارغ، وشغفي الذي استحوذ على تصرفاتي دون استئذان. كنت أعرف أنني تسببت في فوضى عاطفية وعملية، لكن داخلي كان مقتنعًا أن ما قمت به كان ينبع من حاجة صادقة للمساعدة.

بينما كنت أحاول جمع أنفاسي، كسر عمي الصمت بكلماته، التي لم تحمل أي عتاب، بل جاءت كعادته مليئة بالود والحكمة. قال بصوته الهادئ الثابت: "هوّن عليك يا معاذ، ليست هناك مشكلة على الإطلاق. ما قمت به يُظهر قلبًا طيبًا وروحًا معطاءة، ولكن، يا بني، العطاء وحده لا يكفي. أنا أساعد هؤلاء الناس بما أستطيع دائمًا، طعامًا ومالًا، لكن هذا لن يُغنيهم عن العمل. يحتاجون إلى وسيلة لتغيير حياتهم بأنفسهم. العطاء الحقيقي ليس في ملء بطونهم ليوم أو يومين، بل في تعليمهم كيفية كسب لقمة عيشهم بجهدهم."

توقف للحظة، ثم تابع بنبرة تحمل وزن الحكمة: "أتذكر مثلًا صينيًا قديمًا يقول: *'لا تعطني سمكة؛ ولكن أعطني شبكة أو علمني كيف أصطاد.'* علينا أن نقدم لهم الأدوات والمعرفة ليتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم. وهذا هو السبيل الوحيد للتغيير الحقيقي."

شعرت بالخجل يتضاعف داخلي، ولم أستطع منع احمرار وجنتي. لم تكن كلمات عمي توبيخًا، لكنها كانت مثل مرآة عكست لي

جوانب لم أكن أفكر بها. قلت بصوت منخفض، محاولًا تمالك نفسي: "معك حق يا عمي. هذا يتفق تمامًا مع تعاليم ديننا الحنيف، حيث قال الله تعالى: *'إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم.'*"

نظرت إلى أبي، الذي كان يستمع بصمت، لكن وجهه كان يعكس موافقة هادئة على ما قاله عمي. ربما كان يراقبني، ليرى كيف سأتعلم من هذه اللحظة. أدركت أن ما قمت به لم يكن خطأ، ولكنه كان مجرد جزء صغير من صورة أكبر. العطاء العاطفي لحظة، لكن العطاء العملي الذي يبني حياة الناس هو الذي يبقى.

بدا لي أن هذه اللحظة كانت أكثر من مجرد موقف عابر. كانت درسًا في الحياة. فهمت أن الرحمة وحدها ليست كافية إذا لم تكن مصحوبة بتخطيط وإدارة. شعرت بثقل الدرس، لكنه كان ثقلًا مريحًا، لأنه دفعني لإعادة التفكير في معنى العطاء وفي طريقة تأثيري على حياة الآخرين.

***

**مقتل الحراس ودخول الغابة **

بينما كنا نسير في الطريق المؤدية إلى مدخل الغابة، كان الجو مشحونًا بشيء من الترقب. فجأة، مرّت من جوارنا سيارة نقل مكشوفة، تسير بسرعة جنونية كأنها تهرب من شيء أو تسعى وراءه. كان المشهد غريبًا ومثيرًا للقلق؛ ثلاثة رجال طوال القامة،

أحدهم يقود السيارة من الأمام، بينما الاثنان الآخران يجلسان في صندوقها الخلفي.

كانوا جميعًا مُلثّمين، يغطون نصف وجوههم بأوشحة سوداء، مما جعل التعرف على هويتهم أمرًا مستحيلًا. بدوا كأنهم ينتمون لعالم مختلف تمامًا عن سكان القرية، الذين يتميزون بقصر القامة والرؤوس العريضة والأنوف المسطحة. لم يكن في مظهرهم ما يبعث على الاطمئنان؛ بشرتهم الداكنة وأسلحتهم النارية التي يحملونها كانت كافية لتثير فينا شعورًا بالخطر.

كان المشهد مثيرًا للريبة. لماذا يخفون معالم وجوههم؟ ولماذا يحملون تلك الأسلحة النارية الفتاكة؟ أسئلة كثيرة بدأت تدور في رأسي، لكن الإجابات كانت بعيدة المنال. كلمات عمي، التي جاءت تزامنًا مع مرور السيارة، زادت من حدة التوتر: "هؤلاء ليسوا من أهل القرية. إنهم غرباء، ولا يبدو أن وجودهم هنا يحمل خيرًا."

لم يكن هناك وقت للتفكير الطويل. بعد لحظات قليلة، اخترق صوت إطلاق نار الأجواء، كأنه إعلان عن خطر قادم. الصوت كان قويًا ومفاجئًا، جعلنا نتوقف في مكاننا للحظة، نبحث بأعيننا عن مصدره. كان واضحًا أن الغابة التي كنا على وشك دخولها ليست فقط موطنًا للطبيعة، بل أيضًا مسرحًا لأحداث قد تكون خطيرة وغير متوقعة.

تملكنا الفضول وحب الاستطلاع عندما سمعنا صوت الرصاص يدوّي في الأجواء، وكأن الغابة نفسها تُعلن عن خطر غامض يقترب. تحركت أقدامنا بسرعة، كأنها تتبع نداءًا خفيًا، نركض دون التفكير كثيرًا، مدفوعين برغبة ملحة لمعرفة ما حدث. كل خطوة كانت تزيد من توترنا، وكأن صوت الرصاص يترجم إلى نبضات متسارعة في صدورنا.

عندما اقتربنا من مصدر الصوت، توقفنا فجأة، وعجزنا للحظات عن استيعاب ما رأيناه. المشهد أمامنا كان كابوسًا حيًا؛ حراس الغابة مطروحين أرضًا، ملطخين بالدماء التي كانت تنزف بغزارة. كانت أجسادهم مُثقلة بالجروح الناتجة عن الرصاص، ثقوب عميقة تُظهر وحشية الاعتداء الذي تعرضوا له. أسلحتهم، التي كانت ربما الأمل الوحيد لهم في الدفاع، ملقاة على الأرض بجوارهم، كأنها استسلمت معهم لهذه الفاجعة.

كان الصمت يهيمن، رغم كل هذه الفوضى. لم نكن ندري ماذا نفعل أو ما الخطوة التالية. الذعر والهلع كانا يسيطران علينا، وكأننا عالقون بين شعور بالخوف وشعور بالعجز. نظرت إلى عمي، الذي كان يحاول تمالك نفسه، بينما يراقب المكان بقلق شديد. الغابة التي كنا على وشك دخولها لم تعد مكانًا طبيعيًا، بل أصبحت ميدانًا لمواجهة مجهولة.

بدأت الأفكار تتصارع في رأسي: من هؤلاء الذين أطلقوا النار؟ ولماذا استهدفوا الحراس؟ هل كانوا الغرباء الذين رأيناهم في

السيارة؟ ولماذا يحملون هذه الأسلحة؟ أسئلة كثيرة بلا إجابات، لكن المشهد أمامنا كان كافيًا ليُشعل فينا إحساسًا بالخطر.

عمي، الذي كان دائمًا يتمتع بحكمة وهدوء، قال بصوت منخفض: "علينا أن نكون حذرين. هذا المكان ليس آمنًا كما كنا نظن." كلماته كانت كافية لتزيد من توترنا، لكنها أيضًا دفعتنا للتفكير في الخطوة التالية. هل نستمر في طريقنا إلى الغابة؟ أم نعود أدراجنا؟

بينما انشغل أبي وعمي بفحص الحراس الجرحى، كان المشهد أمامي يوحي بالكارثة. الدماء التي غطت الأرض وصراخ الجرحى المغمورين في آلامهم جعلني أشعر بعجز لا يُطاق. لكن داخلي كان مدفوعًا بغريزة مختلفة، برغبة مُلحة لفعل شيء. لم أستطع الوقوف هناك دون محاولة المساهمة، شعرت أن كل دقيقة تمر تعني اقتراب الغرباء أكثر إلى أعماق الغابة، حيث قد يحدث ما هو أكثر سوءًا.

بدأت أركض، متجاهلًا صرخات أبي التي كانت تطلب مني العودة. قدماي كانت تتحركان أسرع مما كنت أفكر، تتبعان صوت السيارة الذي بدأ يخفت بينما تبتعد عن الأنظار. كنت أعتقد أنني أملك فرصة، ولو كانت ضئيلة، لتقديم شيء مفيد. رؤية رقم السيارة، إبلاغ الشرطة به، قد يكون البداية لكشف هؤلاء المجرمين. تماما كما كنت أشاهد افلام الاكشن التي لطالما أبهرتني.

لكن الواقع كان أقسى مما توقعت. السيارة، التي كانت تطير كأنها جزء من الرياح، خلفت وراءها سحابة كثيفة من الدخان والأتربة. حاولت عبثًا التركيز وسط ذلك الفوضى التي أغشت عينيّ، كنت

أضغط بيدي على جفني لأزيل الأتربة، لكن كل شيء بدا مشوشًا. شعرت بالإحباط يتسلل إليّ، وكأنني أحارب شيئًا يتجاوز قدرتي.

وقفت للحظات، ألهث وأحاول التقاط أنفاسي. نظرت إلى الطريق الفارغ أمامي، أدركت أنني لن أتمكن من اللحاق بها، وأن كل جهودي كانت بلا جدوى.

حين التفت حولي، اجتاحني شعور بالغربة والعزلة، وكأنني قد أصبحت جزءًا من هذا العالم الغامض الذي لا يشبه أي شيء اعتدت عليه. الأشجار، بشموخها الساحق، كانت تملأ الأفق بأغصانها المورقة، تحجب ضوء الشمس وتخلق ظلالًا كثيفة تضفي مزيدًا من الكآبة والغموض على أرض الغابة. كان السكون مخادعًا؛ يعكس ظلامًا يتخلله حركة خفية من الحشرات والزواحف التي تجوب الحشائش الكثيفة، تُظهر تنوع الحياة وتهدد بسحرها الخطر الكامن.

كان صوت فحيح الأفاعي يُرسل ارتجافات في داخلي، وهي تلف أجسادها حول جذوع الأشجار كأنها تراقبني في صمت قاتل. نقيق الضفادع وصدى طنين الذباب والبعوض كان يزيد من وطأة الأجواء الثقيلة. حتى السماء لم تكن طوق نجاة؛ الغربان التي تحوم حول المكان بنعيقها المخيف بدت كأنها تُعلن لي أنني مراقب من كل جانب.

الخطر كان يُطوقني كأنه شبكة لا أمل في الإفلات منها. بدأت أستشعر أن الغابة ليست فقط مكانًا يفيض بالطبيعة، بل عالم آخر يحمل خطرًا حقيقيًا. رأيت ظلالًا تتحرك بين الأشجار، ربما كانت

مجرد أوهام، أو قد تكون حيوانات تراقبني بصمت. لم أستطع الانتظار لأكتشف، فقررت الهرب، مسرعًا بين الأشجار، أركض بأقصى ما أملك من طاقة، متجاهلًا كل شعور بالتعب، فقط لأبتعد عن هذا المكان الموحش.

.

الغصون كانت تتشابك، بعضها يحاول أن يُمسك بي وكأنها تُصر على أن تجعلني جزءًا من هذا العالم الغامض. شعرت بالأعشاب تلتف حول حذائي، مما جعل الركض أكثر صعوبة، لكن خوفي كان حافزي الأكبر. كنت أركض بلا اتجاه واضح، لكنني أعلم أنني أحتاج إلى العودة إلى المكان الذي رأيت فيه أبي وعمي آخر مرة.

أثناء ركضي، شعرت بالعرق يتصبب من جبهتي، والهواء يزداد كثافة حولي، وكأن الغابة تحاول إخراجي من أعماقها بطريقة مرعبة. كنت أسمع صوت حواسي أكثر من أي شيء آخر، عيني تبحث عن أي علامة تدلني على مخرج، وأذني تصغي لأي صوت قد يخبرني أنني لست وحدي.

بينما كنت أبحث عن مخرج من الغابة، شعرت وكأن الأجواء قد منحتني استراحة هادئة. وسط الغموض والخطر الذي أحاط بالرحلة، كان ظهور الأرنب البري ذا الفرو البني الكثيف بمثابة لقطة تحمل في طياتها جمالًا من الطبيعة وسحرًا خاصًا. كان يقفز بخفة ورشاقة بين الأعشاب، ويتغذى على أوراق الأشجار الخضراء العريضة التي تكاد تحجب الضوء عن الأرض.

شعرت بشيء من الحماس الداخلي الذي أيقظ حُلمي القديم بممارسة الصيد البري. فكرة تتبع الأرنب والإيقاع به كانت تُشعل خيالي وتربط الماضي بالحاضر، وكأن هذه اللحظة قد حانت لتحقيق أمنية لطالما رغبت بها.

بدأت أراقبه عن كثب، أراقب كل حركة وكل قفزة. كان سريعًا، وحركاته كانت مدروسة وكأن الطبيعة علمته كل خبايا الهروب والبقاء. حاولت أن أخطو بهدوء، أتبع أثره عبر الأعشاب الكثيفة دون أن أصدر صوتًا قد يُزعجه.

تلك اللحظة كانت أكثر من مجرد محاولة للصيد، كانت ارتباطًا مباشرًا بالطبيعة وبجمالها. ربما لم يكن الأرنب هدفًا فقط، بل أيضًا رمزًا لتجربة حياتية جديدة تُخرجك من دوامة الأحداث المحيطة بك، وتُدخلك في عالم من البساطة والمتعة المرتبطة بالطبيعة.

بينما كنت أراقب الأرنب وهو يقفز بخفة بين الأعشاب والحشائش، شعرت وكأن الطبيعة كلها تتحد لتختبر إرادتي. كل فشل واجهته في إطلاق السهام كان يُضيف طبقة جديدة من التحدي، لكن هذه التحديات أيضًا زادت من عزيمتي. الأرنب بدا وكأنه يُدرك حجم الإصرار في عينيّ، يتحرك بسرعة وبخفة، وكأن الأرض تفتح له طريقًا للهروب.

عندما ارتطم سهمي الأول بجذع الشجرة، بدا الأمر كأنه أول تحذير لي أن هذا لن يكون سهلاً. الظل الذي خلفه الأرنب وهو يقفز باتجاه اليسار جعلني أكثر يقظة . السهم الثاني الذي أصاب الصخرة

الصلبة خلف الأرنب لم يكن مجرد فشل آخر، بل كان بمثابة دعوة لإعادة التفكير في استراتيجيتي. وقفت للحظات، أُحاول تهدئة نبضات قلبي التي كانت تتسارع مع كل حركة للأرنب، وأفكر فيما إذا كنت قد أُخطأت التقدير أم أنني أحتاج إلى الصبر أكثر.

شعرت بالحيرة، والإحباط بدأ يُلقي بظلاله على روحي. كانت الغابة بظلالها الكثيفة وضجيج أصواتها الطبيعية تضيف إلى هذا التوتر الداخلي، وكأنها تُذكرني أنني لست جزءًا منها. للحظة فكرت في التراجع، في ترك الأرنب يعود إلى جحره بسلام، والعودة أدراجي لأجد أبي وعمي حيث يمكنني الشعور بالأمان.

لكنني تذكرت أن الصبر مفتاح لكل شيء، وأن المثابرة هي الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف الصعبة. أخذت نفسًا عميقًا، ورفعت القوس بحذر، مستجمعًا كل تركيزي هذه المرة. عيناي اللتان اتسعت حدقتهما كالعدسة المكبرة، كانت تراقبان الأرنب كأنه أصبح النقطة الوحيدة التي أراها في العالم. اللحظة كانت حاسمة، وعندما انطلقت السهم الثالث، شعرت بالارتياح العارم يتسلل إلى صدري عندما رأيت الأرنب يقع تحت تأثير السهم. لقد أصبته أخيرًا، بدقة لم أكن أتوقعها.

وقفت لبضع ثوانٍ، أنظر إلى الأرنب، وأشعر بمزيج من الفخر والامتنان. لم يكن الأمر مجرد صيد، بل كان درسًا في الإصرار والصبر. حملت الأرنب بيدي، وشعرت بالوزن الخفيف الذي يحمله، لكنه في داخلي كان يزن أكثر، كأنه يحمل رسالة بأن القوة

ليست في السلاح أو المهارة وحدها، بل في العقلية التي تُواجه كل تحدٍ بثبات.

شعرت بفرحة غامرة عندما حققت نجاحي أخيرًا في اصطياد الأرنب. كانت لحظة النصر تلك تحمل في طياتها شعورًا بالإنجاز، كأن الطبيعة نفسها منحتني وسامًا صغيرًا على صبري وتركيزي. قفزت عاليًا في الهواء، وكأن قدماي أصبحتا أخف من ريشة، وصفقت بيديّ بقوة، معبّرًا عن سعادتي العارمة.

حملت الأرنب بين يدي، أشعر بإنجاز كبير وأنا أنظر إلى ملامحه البريئة. لم يكن مجرد صيد، بل كانت اللحظة شاهدًا على قدرتي على تحقيق ما ظننتُه صعبًا في البداية. كانت يداي تحتضنه بلطف، وكأنني أقدم للعالم دليلاً صغيرًا على نجاحي.

بدأت خطواتي تتسارع وأنا أحاول أن أعود أدراجي إلى حيث كان أبي وعمي. في داخلي شوق لتقديم هذا الدليل على براعتي في الصيد البري الممتع. أردت أن أظهر لأبي كم كنت ماهرًا، وأجعل الفخر يتسلل إلى عينيه وهو يراني محققًا أمنية لطالما رغبت في تجربتها على أرض الواقع.

بينما كنت أقف التفت يمينًا ويسارًا، محاولًا تمييز أي علامة تُذكرني بالطريق الذي سلكته. نظرت للخلف، ثم للأمام، لكن كل شيء بدا وكأنه ينتمي إلى عالم غريب لا نهاية له. أشجار شاهقة بأغصانها الملتفة، ظل ثقيل يعم المكان، وأرض مغطاة ببساط أخضر من الحشائش التي تُخفي أكثر مما تُظهر.شعرت وكأن الغابة قد

أحاطتني بصمتها الغامض، وأصبحت كل اتجاهاتها متشابهة بلا معالم واضحة.

أدركت في تلك اللحظة أنني قد توغلت كثيرًا في الغابة جريًا وراء الأرنب، دون أن ألتفت للوقت أو الاتجاه. وقفت هناك، وسط هذا العالم الموحش الذي تحيط به أصوات الطبيعة التي أصبحت وكأنها تعزف سيمفونية من الغموض والخطر. بدأت أستشعر أنني قد ضللت الطريق، وأن العودة أصبحت أكثر تعقيدًا مما تخيلت.

التحدي الآن لم يكن فقط الخروج من الغابة، بل كان مواجهة هذا الشعور بالعزلة والخوف، واستعادة الثقة التي قد تخفيها هذه الظلال الثقيلة. ربما ما تحتاجه هو فكرة جديدة للخروج، أو ربما تلك الغابة تحمل في طياتها شيئًا لم تكتشفه بعد.

***

ظهور المفترس: لقاء مع الخطر

بينما كنت أقف في قلب الغابة، أحاول البحث عن طريق للخروج، ظهر فجأة من بين الأشجار العالية ذات الأوراق الكثيفة دبٌ بني ضخم، كأن الغابة كانت تُخبئه لتضيف طبقة جديدة من الرعب إلى تجربتي. كان هذا المخلوق قوي البنية، كبير الحجم بشكل مذهل، وزنه يُقدر بحوالي ثلاثمائة كيلو جرام، وطوله يُلامس المترين تقريبًا. كل شيء فيه بدا كأنه أداة للهيمنة؛ أنياب حادة بارزة كالسكاكين، ومخالب قوية تبدو وكأنها تستطيع اختراق جذوع الأشجار بسهولة.

توقف الزمن للحظات وأنا أُحدق في هذا الوحش الهائل. كل ما حولي بدا وكأنه صامت، سوى نبضات قلبي التي أصبحت كأنها دقات طبول تُعلن الخطر. نظراته كانت حادة، تخترق المسافة بيننا، وكأنها تُقيّم إن كنت أستحق أن أكون فريسة. شعرت بأنني بلا حول ولا قوة، قطعة صغيرة في عالم مليء بالكائنات التي تتحكم فيه.

هذه اللحظة لم تكن فقط مواجهة مع دبٍ، بل كانت اختبارًا حقيقيًا للشجاعة والذكاء. هل ستعتمد على هدوءك أم ستختار الهرب؟ وكيف ستتغلب على خوفك الذي حاول السيطرة عليك؟

لا يمكن للكلمات أن تصف حجم الرعب الذي اجتاحني عندما رأيت الدب واقفًا على قدميه، يحاول الوصول إلى العسل في خلايا النحل المخبأة داخل جذوع الأشجار. كان مشهدًا مهيبًا، مليئًا بالقوة

والخطر، جعل جسدي يقشعر وشعرت وكأن الغابة كلها تراقبني بصمت ثقيل.

حاولت الاختباء خلف إحدى الأشجار، لكن الدب كان أسرع مما توقعت. لمحني بعينيه الحادتين، وكأنهما تُعلن بداية مطاردة لا مفر منها. استند على يديه وقدميه، مستعدًا للانقضاض، وبدأ يجري نحوي بسرعة مذهلة، كأن الأرض نفسها تُساعده في الوصول إليّ. كنت أركض بكل ما أملك من قوة، لكن خطواتي كانت تتعثر، وقلبي ينبض بسرعة كأنه يُحاول الهروب من صدري.

بينما كنت أركض، نظرت خلفي لأراقب الدب الذي بدا وكأنه لا يتوقف، أنيابه الحادة ومخالبه البارزة كانت كافية لتُشعل في داخلي خوفًا لا يمكن وصفه. فجأة، تعثرت بأحد الأحجار الكبيرة التي كانت تعترض طريقي، وسقطت على الأرض، منبطحًا على وجهي. عندما استدرت بسرعة، رأيت الدب واقفًا أمامي، مُكشرًا عن أنيابه، يهجم عليّ بمخالبه، بينما يسيل اللعاب من فمه بغزارة، يغمر وجهي وكأنه يُعلن نهايتي.

أغمضت عيني، مستسلمًا لقدري، متمنيًا أن ينتهي كل شيء بسرعة. لكن الطبيعة كان لها رأي آخر. فجأة، شعرت بصوت طنين قوي يملأ المكان، وفتحت عيني لأرى النحل الأفريقي يهب للدفاع عن مملكته. بأعداد كبيرة، هجم النحل على الدب بقوة وشراسة، يلسعه بلا توقف. كان المشهد مذهلًا، وكأن الطبيعة نفسها قررت أن تُنقذني.

الدب، الذي كان قبل لحظات رمزًا للقوة، سقط على الأرض مغشيًا عليه، غير قادر على التحرك من شدة اللدغات القاتلة التي تلقاها. شعرت وكأنني حصلت على فرصة ثانية للحياة، بفضل تدخل غير متوقع من الطبيعة.

بينما كنت أستلقي على الأرض، مذهولًا من المشهد المهيب الذي أمامي، لم أكن أصدق أنني نجوت للتو من مواجهة كادت تكون نهايتي. أغمضت عيني للحظات، أحاول تهدئة نبضات قلبي التي كانت تتسارع بشكل جنوني، مستعيدًا ذاك الرعب الذي شلّ تفكيري عندما كنت ملاحقًا من ذلك الدب الهائل. صوت طنين النحل ما زال يدوي في أذني، وكأن الطبيعة تُذكرني بأنها لم تتركني وحدي.

فتحت عيني ببطء، ونظرت إلى الدب الذي أصبح عاجزًا عن الحركة، مستلقيًا على الأرض بعد أن تلقت جسده شراسة لسعات النحل الأفريقي. شعرت بمزيج غريب من الامتنان والرهبة؛ امتنان لأنني ما زلت حيًا، ودهشة من الطريقة التي تدخلت بها الطبيعة لتغير مجرى الأحداث. في تلك اللحظة، أدركت أن الغابة ليست فقط مكانًا للخطر، بل هي أيضًا مكان يُظهر قوة التوازن في العالم، وكيف أن كل كائن فيها يلعب دوره بطريقة مذهلة.

مواجهة جديدة: لقاء مع الأفعى

بعد نجاتي من ذلك الدب المفترس، كنت أظن أن الخطر قد ولّى، وقررت التحرك فورًا لمغادرة ذلك المكان الذي بدا وكأنه يخبئ المزيد من المفاجآت. لكن لم أكمل خطواتي إلا ووجدت نفسي أمام مشهد آخر لا يقل رعبًا. أفعى مخيفة ذات جلد أملس مزركش بألوان تضيف لها هيبة غامضة، كانت تتدلى بخفة من فرع شجرة عالية، وكأنها تراقب كل حركة من حولها.

ما أن لامست الأرض حتى بدأت تزحف نحوي، حركاتها كانت هادئة لكنها مشحونة بالقوة والتحفّز. عيناها الضيقتان، اللتان تطاير منهما الشرر، كانت تُثبّت نظرها نحوي كما لو أنني أصبحت هدفها التالي. عندما فتحت فمها الواسع، رأيت لسانها المشقوق الذي يخرج بخفة ويرسل ذبذبات في الهواء، يُفرز السم في كل اتجاه، يُظهر طبيعتها كصيادة من الدرجة الأولى.

رغم الخوف الذي اجتاحني، كنت مذهولًا بالطريقة التي تُظهر فيها الأفعى تكيفها المدهش مع الطبيعة. بضعف حاسة الإبصار، استطاعت هذه المخلوقات أن تُطور مهارات فريدة لتعويض هذا النقص. ذلك اللسان المشقوق ليس مجرد أداة للتذوق، بل هو وسيلتها

لتشم رائحة فرائسها وتحدد مواقعهم بدقة. هذه القدرة، التي وهبها الله لها، هي جزء من عبقرية التصميم الطبيعي، الذي يُظهر كيف أن كل كائن يعيش ويستمر بناءً على قدرته على التكيف.

أثناء مراقبتي لهذه الأفعى، وجدت نفسي أتأمل القوة الهائلة التي تمنحها الطبيعة للكائنات. الديناصورات، رغم عظمتها، لم تتمكن من التكيف مع ظروف بيئتها المحيطة، فاندثرت إلى الأبد. لكن هذا الكائن الصغير أمامي، الذي يبدو وكأنه سيفترسني، هو دليل حي على أن النجاة ليست دائمًا للأقوى حجمًا، بل للأكثر تكيفًا ومرونة.

ومع ذلك، وفي ظل هذا الخطر المحدق، كان عليّ أن أتصرف بسرعة قبل أن يتحول تأملي في جمال الطبيعة إلى مواجهة قد لا أخرج منها سالمًا.

كان الموقف الذي وُضعت فيه أشبه بفيلم مشوق، حيث تتحول الطبيعة من مساحة للمغامرة إلى ساحة مليئة بالخطر. تسمرت في مكاني، جسدي مشلول من شدة الخوف، بينما الأفعى تتقدم بخطوات ثابتة، تشد حلقاتها حول ساقي، مستعدة لتوجيه لدغتها القاتلة. كانت هذه اللحظة كأنها تمثل نقطة اللاعودة، لكن في وسط هذا الضغط الرهيب، قفزت فكرة عبقرية إلى ذهني، مستوحاة من علم البيئة الذي درسناه.

الهرم الغذائي الذي يُظهر كيف تتغذى الحيوانات على بعضها البعض للحفاظ على التوازن البيئي أصبح الآن طوق النجاة. لقد

أدركت أنه لولا النجاح في اصطياد الأرنب سابقًا، لكنت الآن في موقف أبحث فيه عن مخرج بلا أية أدوات للمساعدة.

بجرأة وتصميم، أمسكت بالأرنب بين يدي، وقذفته بسرعة داخل فم الأفعى المفتوح. لم تتردد الأفعى للحظة، بل بدأت في ابتلاع الأرنب بقوة وسرعة، معتمدة على طبيعتها التي تُسهل لها التعامل مع فرائسها. ففكيها، الذين يفتقدان الأسنان واللثة، جعلا المهمة أكثر سهولة، وهي تُثبت قدرتها الفريدة على التكيف مع بيئتها.

في تلك اللحظة، شعرت بارتياح عارم، وكأنني قد استعدت السيطرة على الموقف باستخدام المعرفة التي جعلتني أفهم نظام الطبيعة. كان العلم هو المنقذ هنا، مُظهرًا كيف يمكن أن يكون الفهم هو المفتاح للبقاء حتى في أصعب الظروف.

بفخر وامتنان لهذه الفكرة، أدركت أكثر من أي وقت مضى أن المعرفة ليست مجرد أدوات نظرية، بل هي القوة التي تُغير الطريقة التي نواجه بها العالم.

بعد هذا المشهد الذي احتشد بالخطر والمواجهة، وقفت لأستجمع أنفاسي، مغمورًا بمشاعر مختلطة تجمع بين الفخر والخوف والامتنان. لقد نجوت مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس فقط بفضل شجاعتي، بل بفضل المعرفة التي أصبحت أراها الآن كضوء ينير طريقي حتى في أعتى اللحظات.

وأثناء وقوفي، تحولت نظرتي إلى الأفعى، التي كانت تنتهي من ابتلاع الأرنب. لم أعد أرى فيها مجرد مخلوق مفترس يسعى للبقاء، بل رأيت فيها انعكاسًا للطبيعة بمبادئها الدقيقة، حيث كل كائن يلعب دوره في الحفاظ على التوازن. تذكرت دروسي في العلوم، وكيف أن هذا النظام البيئي المتكامل، الذي قد يبدو أحيانًا قاسيًا، هو ما يضمن بقاء العالم كما نعرفه.

عدت ببطء إلى طريقي، وأكثر حرصًا على متابعة خطواتي. بدأت أشعر وكأن الغابة لم تكن مجرد مكان مليء بالخطر، بل كانت مساحة للتعلم والتأمل. كل شجرة وكل صوت أصبحا يحملان معاني أعمق. ما اعتقدت أنه مجرد رحلة قصيرة أصبح الآن تجربة ستبقى محفورة في ذاكرتي، مليئة بالدروس التي تتجاوز حدود الغابة.

لحظة بين الدمار والنجاة: اشتعال الغابة

كانت الطبيعة تُظهر وجهها الآخر، حيث القوة والجمال يتحولان فجأة إلى دمار وخطر. بينما كنت أحاول الهروب بعيدًا عن الأفعى، وتائهًا في الغابة الشاسعة التي تبدو بلا نهاية، جاء صوت هزيم الرعد وكأنه إنذار شديد. السماء فوقي كانت تتصدع، تُطلق ومضات ضوئية أشبه بشظايا نار اخترقت الغلاف الجوي لتُشعل كل شيء في طريقها.

إحدى تلك الشرارات المستعرة وجدت طريقها إلى فرع شجرة طويل، ذو أوراق كثيفة تبدو وكأنها خزنت لسنوات رائحة الخشب الجاف، فأشعلت بها حريقًا لم ينتظر لحظة. النار زحفت كوحش جائع إلى جذع الشجرة السميك، وبدأت تأكل كل ما يُمكنها الوصول إليه بسرعة شرسة.

وسط ألسنة اللهب، بدت الغابة وكأنها تُدق ناقوس الخطر لحياة لا تُرى بسهولة. أسراب النمل بدأت بالفرار، تطلق إشارات كيميائية عبر روائح تُخبر مستعمراتها بضرورة الرحيل الفوري. مجموعات النحل لم تكن أقل نشاطًا، تنشر الفيرمونات لتحذير بعضها البعض. الخنافس المضيئة قدمت استعراضًا من الومضات، كأنها رسائل مُشفرة، تُعلن لباقي الخنافس أن وقت الهروب قد حان. كانت الغابة كلها في حالة من التوتر المذهل، أشبه بلوحة فنية متحركة تُظهر كيف تتكاتف الحياة للنجاة من خطر مشترك.

لكن هذا المشهد لم يكن فقط عن حياة الغابة. الرياح كانت تُعزز من اشتعال النيران، تنتقل بها من شجرة إلى أخرى كأنها رسل للدمار. تصاعدت ألسنة اللهب الحمراء نحو السماء، تُشعل ظلالها على الدخان الكثيف الذي أصبح يُغطي المكان بالكامل. شعرت وكأن الهواء قد انسحب من رئتيّ، اختنقت مع كل محاولة للشهيق، وكدت أفقد الوعي من شدة الضغط والحرارة.

ثم جاء الغيث. كملاك رحيم أرسله الله في اللحظة الأخيرة، انهمرت قطرات المطر بغزارة، تحولت من مجرد زخات إلى سيول تُعانق النيران وتحاصرها. كان المطر بمثابة فرقة إنقاذ إلهية تملأني بالأمل وسط اليأس. النيران بدأت تخفت تدريجيًا، وأصوات قطرات المطر وهي تتلاشى فوق الدخان كانت أشبه بتهليل للحياة، تعلن نهاية الكارثة.

وأنا أراقب الطبيعة وهي تُعيد ترتيب نفسها، شعرت بضعفي وصغري وسط هذا الكون العظيم. هذا الدمار الذي كان يمكن أن يُنهي حياتي، لم يكن سوى جزء صغير من قوة الطبيعة التي لا يمكن التنبؤ بها. أدركت أن كل لحظة في الغابة كانت درسًا يتجاوز الكلمات، تُذكرنا بأن الحياة قد تتأرجح بين القوة والضعف، وبين الخطر والنجاة.

انخمدت النيران المتصاعدة، وأصبح المشهد أكثر هدوءًا بفعل الأمطار الغزيرة التي تساقطت كأنها تملأ الأرض رحمة وإحياءً. قطرات المطر كانت تنزلق بلطف من فوق أوراق الأشجار، تبلل أرض الغابة التي بدت وكأنها تتنفس بعد كل هذا الاختناق. حتى البساط الأخضر، الذي عانى من الرماد والضباب، بدأ يستعيد رونقه عندما امتزج ببركة الماء التي تركتها الأمطار.

حركة سريعة خرجت مني عندما أدركت تساقط الأمطار، فأخرجت مظلتي وشرعتها فوق رأسي لتحميني من البلل. كنت أُفضل الحفاظ على جفاف ملابسي حتى لا أشعر بالبرد الذي قد يزيد من ضعفي. بدا الأمر وكأنه لحظة تأمل بين ما تُقدمه الطبيعة وما نحتاج إليه لنواجهها.

ما أثار دهشتي هو التحول الذي صنعته الشمس، فقد سطعت بعد توقّف الأمطار وكأنها تقول إن الحياة تمضي دائمًا إلى الأمام، رغم الكوارث التي تُصيبها. كانت أشعتها الذهبية تحتضن أرض الغابة بحنان، وكأنها تعوّضها عن الحرمان الطويل. الغابة، التي بدت

مظلمة من قبل، أصبحت تستقبل الضوء بحرارة، بعد أن تلاشت تلك الأشجار الكثيفة التي كانت تحجب أشعة الشمس في السابق.

لكن هنا يظهر العجب! أدركت أن الحرائق، رغم فظاعتها وخسائرها الفادحة، تحمل في طياتها بعض الفوائد التي قد لا نفكر فيها. إنها توفر الظروف اللازمة لبعض النباتات والبذور لتزدهر، تلك التي تحتاج إلى الحرارة العالية لتنبت وتنمو في مساحات جديدة من الغابات. وبدورها، تعمل النيران على إنهاء حياة الآفات الضارة التي طالما تغذت على الأشجار، ونقلت لها الأمراض.

كأن الطبيعة تعرف التوازن بطرقها الخاصة. وسط الدمار، تُهيئ الظروف للنهضة والنمو. وفي هذه اللحظة أدركت مدى روعة النظام البيئي الذي، رغم قسوته أحيانًا، يحمل دائمًا قوانينه الدقيقة للعيش والاستمرار.

بينما توقفت الأمطار، ظهرت السماء بجمالها الباهر وكأنها تُعلن بداية فصل جديد بعد العاصفة. قوس قزح بألوانه الزاهية افترش السماء وأضفى عليها بهاءً، وكأنه علامة من الطبيعة على أن النور يأتي دائمًا بعد الظلام. لكن قلبي، الذي كان ينبض بعنف داخل صدري، لم يستطع الاستمتاع بهذا المشهد البهي.

رؤية طائرة الهليكوبتر وهي تحلق في الأفق كانت لحظة من الأمل الذي امتزج بالذعر. هذا الأمل تحول بسرعة إلى سباق مع الزمن. تسارعت أنفاسي ودقات قلبي، وخطرت في بالي عشرات الأفكار: هل أركض؟ أم أقفز؟ هل أصرخ؟ أم ألوح بيدي؟ كنت مثل الشخص

الذي يُحاول النجاة وسط صخب داخلي، لكنه لا يعرف أي اتجاه يسلك.

المحاولات المتتابعة لجذب انتباه الطائرة بدت وكأنها في سباق ضد الزمن، لكنها كانت تذهب أدراج الرياح مع كل حركة أقدم عليها. عندما خطرت لي فكرة إشعال شعلة صغيرة باستخدام الحجارة، شعرت بأن هذا قد يكون المفتاح لجذب انتباه قائد الطائرة وطاقمه. ولكن الطبيعة لم تكن على جانبي هذه المرة؛ كل شيء كان رطبًا ومبللًا بفعل المطر الغزير الذي ترك أثره على كل زاوية في الغابة. حتى الحجارة التي بين يديّ لم تساعدني، وكأن الطبيعة تُخبرني بأن عليها اختبار صبري وإرادتي أكثر.

بعدما انهكني التعب وتسلل اليأس إلى قلبي، لم أتمالك دموعي التي تدفقت بشكل عفوي كأنها كانت تحمل عبء تلك اللحظات العصيبة. كنت أشعر بالضعف والوحدة، وكأن العالم بأسره قد تآمر ليضعني وسط هذا الخطر الجاثم. جلست لأتأمل في حالي، وأفكر فيما قد ينتظرني خلف هذا الغموض المحيط بي. كنت عالقًا بين الخوف من المجهول والأمل في النجاة.

لكن تلك اللحظة التي تبدو أنها أسوأ ما يمكن أن يحدث، كانت البداية لعودة الأمل. بين انشغالي بالتفكير في المصير، قفز إلى ذهني ذكرى الهاتف الذي في جيبي. كأن الفكرة جاءت كنجدة غير متوقعة، وكأن الطبيعة نفسها تُريد أن تُذكرني بأنه ما زال هناك أدوات يمكنني الاعتماد عليها.

أخرجت الهاتف بسرعة، وبدأت أفكر في كيفية إرسال موقعي إلى أبي. تلك اللحظة كانت مزيجًا من الأمل والعمل، فأنا أعلم أن أبي لن يتردد لحظة في القدوم لمساعدتي، إذا استطاع أن يعرف مكاني. قد تبدو التقنية البسيطة كالهاتف صغيرة أمام هذا العالم الكبير، لكنها تحمل في طياتها المفتاح للنجاة والتخلص من هذا المأزق المقلق.

بين الخوف الذي يُحيط بي من كل ناحية، وبين شوقي للعودة إلى المنزل بعيدًا عن الخطر، شعرت بأنني أخيرًا قد أخذت خطوة نحو السيطرة على الموقف. أحيانًا، تكون اللحظات الصعبة هي ما يُعيد إلينا ذكاءنا وإبداعنا لنحاول إيجاد الحل.

بينما كنت غارقًا في الأفكار التي تغمر عقلي، قطعني صوت يشبه الصفير، قادم من السماء، وكأنه يدعوني لرفع بصري نحو العلو. نظرت بسرعة، وكانت المفاجأة مذهلة. رأيت نسرًا جارحًا، ضخم البنية، بجناحين كبيرين ومنقار معقوف، يعكس هيبته وقوته. كان هذا المشهد يحمل مزيجًا من الرهبة والانبهار.

لكن ما حدث بعد ذلك كان غير متوقع تمامًا. شعرت بمخالبه القوية تُمسك بأكتافي، وأدركت فجأة أنني أصبح جزءًا من السماء. كنت أرتفع سريعًا، محمولًا بقوة جناحيه، وكأنني أصبح طائرًا رغم إرادتي. ارتفعت إلى ما يقرب من ستة آلاف متر فوق الأرض، الهواء البارد يلفني، وكل جزء مني يشعر بالتوتر والخوف.

النسر، بحركاته السريعة والدقيقة، كان يستدير مُحلقًا بي بعيدًا عن الغابة التي كانت تحاصرني بالخطر. شعرت بضعفي أمام هذا المخلوق الهائل الذي يُمكنه، بسبب خفة وزني وصغر حجمي، أن يُحلق بي كما يُحلق بأحد فرائسه.

لكن هذه الرحلة غير المتوقعة جعلتني أُفكر: ما الذي يجعل الطبيعة تحمل هذا القدر من القوة والغموض؟ وما الذي ينتظرني في نهاية هذا التحليق الغريب؟

أثناء تحليقي على ارتفاع آلاف الأمتار فوق الأرض، شعرت بمزيج مذهل من الخوف والإعجاب بالعالم الذي بات يبدو بعيدًا جدًا عني. الهواء البارد كان يلفني مثل عباءة غير مرئية، يجعلني أرتجف رغم الإثارة التي كانت تغمرني. النسر، بجناحيه العملاقين، كان يحلق بثبات لا يتزعزع، يترك خلفه أثرًا من القوة التي لا تُقاوم.

بين لحظات التوتر والرهبة، شعرت بتأمل عميق يتسلل إلى داخلي. تساءلت، كيف استطاعت هذه الطبيعة أن تجمع بين الجمال والخطر في آن واحد؟ وكيف يمكن أن تكون القوة والضعف جزءًا من ذات المشهد؟ كنت أعيش تجربة تحمل في طياتها دروسًا عن التوازن والقدرة على النظر إلى الأشياء من منظور مختلف.

كل دقيقة مرت في السماء كانت كأنها صفحة جديدة من كتاب الطبيعة، تُضيف لي فهمًا أعمق للعالم الذي أعيش فيه. هل سينتهي

الأمر بسلام، أم أن هذه الرحلة ستأخذني إلى مغامرة جديدة؟ عالم الطيران مع النسر الجارح كان مليئًا بالغموض والإثارة.

رغم أن رحلتي مع هذا النسر العملاق بدأت برهبة خالصة، إلا أن جمال الطبيعة وسحرها أزاحا خوفي شيئًا فشيئًا، واستطعت أن أحول تلك اللحظة إلى فرصة للاستمتاع بما لم أكن أتخيله يومًا. شعرت وكأنني أطفو في حلم، ألامس قطع السحاب البيضاء التي كانت تبدو مثل وسائد قطنية تتهادى برفق في الأفق. حركتها الهادئة، تلك الأريحية التي بدت وكأنها تدعوني للاسترخاء، جعلتني أنسى التعب الذي أنهكني وأتمنى أن أستلقي فوقها لأغفو بين السماء والأرض.

خلال تلك الرحلة غير المتوقعة، بدأت ألاحظ منظر العالم من الأعلى، وكأنني أرى الأرض لأول مرة. الغابة التي كانت مهيبة ومليئة بالخطر أصبحت مجرد رقعة صغيرة وسط الأفق الممتد بلا حدود. الجبال، والأنهار، والسهول كلها بدت كأنها لوحة فنية كبيرة رسمتها الطبيعة بتفاصيل دقيقة.

استطعت أن أرى الغابة من الأعلى كما لم أرها من قبل، واكتشفت في تلك اللحظة أن الجمال ليس فقط فيما نراه من قرب، بل في قدرتنا على النظر من زاوية أوسع. كأنني أصبحت جزءًا من السماء والطبيعة معًا، مرتبطًا بجمال لا نهائي.

شعرت بالدهشة والرهبة من مشهد الغابة التي بدت كأنها قلب ينبض بالحياة، مليئة بالأشجار العتيقة الضخمة، أغصانها المتشابكة كانت كأنها تمسك بعضها البعض في وحدة فريدة. كانت الأحراج الكثيفة

دائمة الخضرة تزينها تلك الأعشاب العطرية التي تفوح منها الروائح الزكية، وكأن الغابة نفسها تتنفس بشذا الزهور المتفتحة.

كل زهرة وكل نبات يسعى جاهدًا ليصل إلى أشعة الشمس البعيدة، التي كانت محجوبة عن كثير منها بسبب ظلال الأشجار المتشابكة. بدا هذا المشهد وكأنه درس في الطموح، ورغبة الحياة في البحث عن النور حتى وسط الظلام والظل الكثيف. أشعة الشمس الدافئة التي استطاعت الوصول إلى بعض الزوايا كانت تبدو كأنها تمنح تلك النباتات جرعة صغيرة من الأمل.

وفي مشهد مذهل، قدمت الطيور، بكل أشكالها وألوانها، عرضًا راقصًا يسرق الأنظار ويسحر العقول. رأيتها تبني أعشاشها وتطعم صغارها، وهي تتباهى بريشها الملون الزاهي وقوامها الرشيق الجذاب. إلى جانبها، عزفت الحيوانات سيمفونية غنائية رائعة الألحان، تختلط فيها أصوات الطبيعة بحركات الصيد والبناء. بدت الأرض من الأعلى وكأنها لوحة فنية خلّابة أبدعها الخالق سبحانه وتعالى، حيث تتجلى كل عناصر الجمال والكمال في وحدة متناغمة تأسر الروح.

في الحياة البرية، تظهر الأسود تنظيمًا مثيرًا للإعجاب في توزيع المهام بين الذكور والإناث. تميل الذكور عادةً إلى الراحة والتشمس تحت أشعة الشمس، تاركة مسؤولية الصيد للإناث، التي تمتلك قدرة رائعة وسرعة تصل إلى 59 كيلومترًا في الساعة. هذه السرعة تمنحها فرصة أكبر لاصطياد الفريسة وتأمين الغذاء للعائلة.

لكن عندما يتعلق الأمر بفريسة كبيرة الحجم، مثل الجاموس البري الذي يمكن أن يصل وزنه إلى 400 كيلو جرام، يصبح تدخل الذكر ضرورة. قوة الذكر وخبرته تجعل منه عاملًا حاسمًا في السيطرة على الفريسة وإنجاز المهمة. ما يثير الفضول هو تركيز الأسد على اختيار فريسة واحدة في كل مرة، حيث يُفضل أن يخصص كل جهوده نحو هدف محدد، بدلًا من تشتيت نفسه بين أكثر من فريسة. هذا السلوك يُظهر جانبًا فريدًا من استراتيجيته كصياد بارع ومتكيف مع بيئته.

هذا التنظيم الطبيعي يُبرز التوازن بين القوة والاستراتيجية، وهو أحد أسباب هيمنة الأسود كملك للغابة.

إن ما لاحظته في عائلة الأسود يكشف حقًا عن النظام الدقيق الذي تضعه الطبيعة في تقسيم الأدوار بين الكائنات المختلفة. الأسود، بكونها محافظَةً في تنظيمها الاجتماعي، تبدأ الذكور بالتهام الفريسة أولًا، وكأنها تؤكد على دورها القيادي. وبعد انتهاء الذكور، تتقدم الإناث، وبصحبتهن الأشبال الصغيرة، لتأخذ نصيبها من الوليمة، مما يتيح للأجيال الصاعدة أن تحصل على الطاقة اللازمة للنمو.

وعندما تنتهي الأسود من وجبتها، تدخل الذئاب والضباع إلى المشهد. بحذرها المعروف وخبرتها في استغلال ما يتبقى من الصيد، تقوم هذه الحيوانات بالتهام نصيبها، مُظهرة كيف تتحكم الطبيعة في توزيع الموارد بين الكائنات المختلفة. المرحلة الأخيرة لهذا العرض الغذائي تأتي مع وصول النسور، التي تحوم فوق الموقع لتؤدي دورها الخاص. هذه الطيور الجارحة، التي تُلقب

بـ"منظفي الطبيعة"، تساهم في الحفاظ على توازن النظام البيئي، حيث تستهلك ما تبقى من الجيف، وتساعد في تنظيف البيئة من البقايا التي قد تكون مصدرًا للأمراض.

هذا المشهد من الأعلى يعكس لوحة حيّة من التناغم والتعاون بين الكائنات في السلسلة الغذائية. على الرغم من أن كل نوع يسعى للبقاء بطرقه الخاصة، إلا أن الكل يلعب دوره لإبقاء النظام البيئي في حالة توازن.

بينما كان النسر يحلق بي عاليًا، قبضته تُثبّتني بين مخالبه القوية، بدأت أعين الطبيعة تكشف لي مشاهدًا مدهشة من الحياة البرية التي تطفو بوقار تحت جناحيه. تجاوزنا الأعشاب السافانا ذات اللون الذهبي الذي يعكس حرارة الشمس، إلى منطقة تُحيط بالغابة من الجهة الأخرى. هناك، برزت أمامي بركة واسعة من المياه الضحلة الراكدة، تبدو في ظاهرها مكانًا هادئًا، لكنها تخبئ أسرارًا من القوة والكفاح للبقاء.

وسط هذه البركة، كانت التماسيح الضخمة تُجسد هيبتها، أجسامها الطويلة وأرجلها القصيرة تُعطيها مظهرًا غامضًا مهيبًا. أذنابها الطويلة التي تتحرك بخفة تحت الماء تُظهر استعدادها للانقضاض في أي لحظة. كانت تطفو على سطح الماء، كأنها تراقب المكان بعناية، تتنفس وتترقب الفرصة للانقضاض.

المشهد أخذ منحى آخر عندما اقترب غزال رشيق، منهك من العطش، يبحث عن بعض الراحة ليشرب من البركة. كانت التماسيح

في حالة من الصمت التام، وكأنها تُمثل صبرًا مقصودًا يسبق الهجوم. وفجأة، وكأنها تنفجر من أعماق الماء، أحد التماسيح انقضّ على الغزال خلسة، بفكيه الضخمين ذوي الأسنان الحادة والقواطع المتشابكة، محكمًا قبضته عليه دون تردد.

بتكتيك متقن، سحب التمساح الغزال إلى الماء، حيث قام بإغراقه بتلك القوة الفريدة التي تُبرز هيمنته في هذا النظام البيئي. لم يكن هناك أي مضغ أو تقطيع؛ التمساح ابتلع الفريسة بالكامل، في مشهد يعكس استراتيجيات البقاء التي تُظهر كيف توازن الطبيعة بين حياة وموت كل كائن على هذه الأرض.

هذه اللحظة من الأعلى لم تكن مجرد مشهد قوي، بل كانت درسًا جديدًا في فهم قدرة الطبيعة على التأقلم والبقاء، كيف تُظهر القوة والغموض معًا، وكيف تحمي التوازن في كل تفاصيلها.

ما قرأته عن التماسيح يُبرز جانبًا مثيرًا للإعجاب في آلية بقائها وقدرتها على التكيف مع بيئتها. من المذهل حقًا كيف أن التمساح، بمجرد ابتلاعه لفريسته بالكامل، يكون قادرًا على الاكتفاء بها لعدة أشهر. يعود ذلك إلى عملية الهضم الفريدة لديه، حيث تستغرق سحق وهضم العظام والحوافر والقرون وقتًا طويلاً. هذا البطء في الهضم يمنحه ميزة إضافية تُقلل من حاجته للصيد المتكرر، مما يجعله أحد أكثر الحيوانات اقتصادًا في استخدام الطاقة.

في الواقع، نظام التماسيح هذا هو انعكاس مذهل لفكرة الطبيعة في توفير التوازن بين استهلاك الموارد والحاجة للبقاء. التفكير في كيفية قيام هذا المخلوق بالحفاظ على طاقته لفترات طويلة يُبرز درجة الدقة في تصميمه البيولوجي.

كان هذا المشهد حقًا من أروع الدروس التي تقدمها الطبيعة عن التوازن والتكامل بين الكائنات الحية. طيور الزقزاق، التي غالبًا ما تُعرف بكونها "طبيب أسنان التمساح"، تُظهر شجاعة وإقدامًا استثنائيين عندما تقترب من ذلك المخلوق القوي ذي الفكين الهائلين.

المثير للعجب أن التمساح، المعروف بقدرته المذهلة على التهام فريسته في لحظة، يُظهر هنا سلوكًا مختلفًا تمامًا. يترك فمه مفتوحًا، وكأنه يُرحب بخدمات هذه الطيور الصغيرة. طيور الزقزاق، بدورها، تتعامل مع الأمر بثقة واضحة، وهي تلتقط بقايا الطعام العالقة بين أسنانه الحادة. هذا المشهد يُظهر علاقة تبادل منفعة بين الطرفين؛ حيث تحصل الطيور على غذائها بينما تُسهم في تنظيف أسنان التمساح من البقايا التي يمكن أن تكون مصدرًا للأمراض أو التهابات الفم.

هذا التعاون الفطري هو مثال آخر على تصميم الطبيعة البديع، حيث تُبرز كيف تعتمد الكائنات الحية على بعضها البعض لتلبية احتياجاتها واستمراريتها. هذه العلاقة، التي تبدو متناقضة بين الطائر الصغير والتمساح المفترس، تُذكرنا بحكمة الطبيعة في إيجاد التوازن حتى في أكثر البيئات تحديًا.

مشهد الصيادين وهم يحاولون اصطياد التمساح يعكس جانبًا قاتمًا من العلاقة بين الإنسان والطبيعة. التمساح، ذلك المخلوق ذو الغطاء الحرشفي السميك والمتين الذي جعله هدفًا مغريًا للصيادين بسبب قيمة جلوده العالية، يجد نفسه وسط معركة غير عادلة لا يدور فيها الصراع حول النجاة، بل حول استغلال الطبيعة لتحقيق الأرباح.

جهود الصيادين في تنفيذ خطتهم، من وضع الطُعم المثبّت على الخطاف إلى شدّ الحبل لإخراجه من البركة، تُظهر براعة الإنسان في التكيف واستخدام أدواته. لكن عنف التمساح في مواجهة الخطر، وضرب الأرض بذيله الهائج، يُبرز جانبًا من القوة الطبيعية التي تُقاوم استغلالها. حتى لحظة الهروب وابتلاعه أحد الصيادين، كانت كأنها رسالة صارخة عن أن الطبيعة تُدافع عن نفسها عندما تواجه تهديدًا.

إطلاق النار على رأس التمساح وانتهاء حياته بتلك الطريقة المأساوية يُسلط الضوء على العواقب الوخيمة للصيد الجائر، ليس فقط على الكائنات الفردية، بل على النظام البيئي بأكمله. مع استمرار الطلب العالمي على جلود التماسيح التي تُستخدم في صناعة الحقائب والأحذية الفاخرة، أصبحت هذه الكائنات مهددة بالانقراض، مما يُهدد بفقدان دورها الحيوي في البيئة.

التماسيح ليست فقط رمزًا للقوة والهيبة في البرية، بل هي جزء أساسي من النظام البيئي، حيث تساعد في الحفاظ على توازن الحياة في المناطق المائية. يُظهر هذا المشهد كيف يمكن لتصرفات البشر

أن تؤدي إلى خلل في هذا التوازن، مما يستوجب التفكير الجاد في أهمية حماية هذه الكائنات والعمل على الحد من الصيد الجائر.

بينما يدور النسر فوق الغابة وحولها، يتأرجح بي بين الهواء البارد والخوف الكامن في داخلي، كنت محاطًا بأفكار مفزعة لا تنتهي. خطر البحيرة الممتلئة بالتماسيح يطاردني ككابوس، وصورة قمم الجبال العالية حيث تبني النسور أعشاشها تزيد من قلق الاحتمالات. شعرت وكأنني في متاهة من المخاوف، وعقلي يبحث بلا هوادة عن سبيل للنجاة.

اتخذت قرارًا حاسمًا، وهو أنني لن أستسلم لهذه القبضة الحديدية التي تشدني نحو المجهول. كان عليّ أن أجد مخرجًا، فبدأت أفكر مليًا في الطريقة التي يمكنني بها تحرير نفسي من هذا الأسر. كانت تلك اللحظة مليئة بالتوتر، لكنني شعرت بأن إرادتي تفوق كل الخوف الذي يحاصرني.

بعد تفكير عميق، جاءتني الفكرة التي بدت كأنها وحي من الله، سبيل للخلاص الذي أعاد لي القوة. قرار خلع أحد أكمام سترتي كان قرارًا جرئًا ومبتكرًا؛ كنت أعلم أن النسر يعتمد على قبضته المثبتة بإحكام، وخلع الكم سيؤدي إلى اختلال توازنه. بمجرد أن ينفلت، سيتأرجح ويميل، مما يمنحني فرصة للسقوط الحر بعيدًا عن هذه الرحلة الغامضة.

مع هذا القرار، لم يكن الأمر فقط عن تحرير نفسي من قبضة الطائر الجارح، بل كان درسًا في القوة الداخلية والاعتماد على الذات في

أشد اللحظات صعوبة. خطوة نحو النجاة التي تتطلب التفكير والعمل بدلًا من الاستسلام.

بينما كنت عالقًا في محاولة تحرير نفسي من قبضة النسر، كان الشعور بالعجز والخوف يتسرب إلى داخلي بشكل متزايد. لم يكن لدي خيار سوى الاستمرار في المحاولة، رغم التوتر الذي يزداد مع كل لحظة. وفجأة، جاء اصطدام النسر بشجرة عالية ليغير مسار الأحداث بشكل غير متوقع.

السقوط كان سريعًا للغاية، كأن الأرض تُسرع لاستقبالنا في مشهد يملأه التوتر والقلق. صرخاتي التي ملأت الهواء، قائلًا "ساعدوني، أنقذوني"، لم تجد من يسمعها، لكن في هذه اللحظة العصيبة، تحولت غريزة البقاء إلى عمل فوري. خلال السقوط، استطعت أن أتشبث بفرع شجرة طويل، وقد كان هذا الفرع بمثابة طوق نجاة منعني من السقوط السريع الذي كان سيقودني إلى موت محتوم.

النسر، من جهته، أظهر قوة مذهلة في استعادة توازنه بسرعة، حيث عاد إلى السماء مرة أخرى محلقًا وكأن ما حدث لم يكن سوى عقبة بسيطة في طريقه. مشهد النسر وهو يطير مجددًا كان رمزًا للقوة والقدرة على النهوض بعد التعثر، لكن بالنسبة لي، كانت هذه اللحظة درسًا في الاعتماد على الذات والشجاعة أمام المواقف المفاجئة.

بينما كنت أتأرجح على فرع الشجرة، محاولًا أن أُقاوم ألم الذراعين الذي كان يزداد مع كل ثانية تمر، بدأ إحساسي بالخوف يتضاعف. كان النظر للأسفل يُشعرني بالدوار ويُذكرني بالخطر المحدق، حيث

الأرض تنتظر سقوطي. بدا أن قبضتي على الفرع تفقد قوتها تدريجيًا، وكلما شعرت بقرب الانفلات، كنت أواجه فكرة الموت بتوتر شديد.

وفجأة، لاحظت حركة مثيرة للاهتمام بين الفروع المجاورة. ظهر شمبانزي يبدو وكأنه جزء حيّ ومفعم بالحيوية من الطبيعة. تغطي جسمه طبقة من الشعر الطويل الداكن، بينما وجهه خالٍ من الشعر تقريبًا، يُظهر تعابير تشبه التأمل واليقظة. كان يتحرك بخفة ودقة بين الفروع، مستخدمًا ذراعيه الطويلتين، اللتين يبلغ طول كل منهما نحو 270 سم، بسهولة بالغة.

كانت حركاته الأنيقة تعكس قوة وسرعة لا يُستهان بهما، وكأنه سيد الأشجار. استطاع التأرجح بين الفروع وكأنها جزء منه، مما جعلني أُفكر: هل يمكن أن يكون هذا الكائن مفتاح نجاتي؟ هل من الممكن أن يُلاحظ وجودي ويُساعدني قبل أن ينفلت الفرع من قبضتي؟

هذه اللحظة كانت محملة بالأمل وسط الخطر، وكأن الطبيعة قد أرسلت لي مُنقذًا غير متوقع. قد يكون للشمبانزي دورٌ ما، أو ربما سيُظهر لي سبيلًا جديدًا للنجاة.

بينما كانت ذراعاي توشك على الاستسلام، وبينما الألم يتصاعد كالحمم في جسدي، كانت فكرة التفاهم مع الشمبانزي تبدو مدهشة ومليئة بالأمل. ذلك الكائن الذكي، الذي تأرجح بخفة قريبة من فرع

الشجرة الذي أتشبث به، ربما يكون هو المفتاح لخلاصي من هذا المأزق العالق فيه.

تردده الذي لاحظته من حركاته، بين الإقدام والإحجام، أشعرني وكأنه يختبرني، أو ربما كان مترددًا لأنه لم يتعامل مع موقف مشابه من قبل. ذلك الصوت الذي يشبه الضحك الذي كان يطلقه، جعل المشهد يبدو كوميديًا وسط هذه الظروف العصيبة، وكأنه يسخر من وضعي، ولكنه في نفس الوقت يحمل بعض الود الذي جعلني أتمسك بالأمل أكثر.

عندما وقعت عيني على ثمار الموز المتدلية، بدا وكأن الطبيعة نفسها تقدم لي يد العون. قطف إصبع الموز وتقديمه للشمبانزي كان قرارًا سريعًا، وكأنني أعرض عليه صفقة سلام وصداقة في وقت أحتاج فيه إلى أي مساعدة. الموز الذي يحبه الشمبانزي، والذكاء العاطفي الذي يتميز به، قد يجعلان من هذه الهدية جسرًا للتفاهم بيننا.

ما تعلمته من القراءة في أوقات الفراغ، عن قدرة الشمبانزي على فهم مشاعر الحزن والفرح، وكيف يعبر عنها باستخدام الإيماءات الجسدية، أعطاني ثقة بأنه قد يتعاطف معي في هذه اللحظة. ربما تلك المعرفة هي التي زودتني بالأمل والإبداع للتعامل مع الموقف بشكل غير تقليدي.

نجحت حيلتي في اجتذاب القرد الذي اقترب من دون تردد، ليلتقط بأصابعه ثمار الموز، وبدأ يقشرها بمهارة ويأكلها بسعادة. بدا

واضحًا أنه كان جائعًا جدًا، يبحث عن شيء يملأ به معدته ويُشبع رمقه. شعرت حينها ببصيص من الأمل يتسلل إلى داخلي، خاصة عندما رأيته يبتسم لي وكأنه يشكرني. بل زاد الأمر دهشة عندما حاول مصافحتي بيديه الكبيرتين، وكأن بيننا لغة من نوع خاص!

مددت يدي إليه بالإشارات، محاولًا أن أوضح له ما أرغب به: أن يرفعني بذراعيه القويتين إلى أعلى. كررت الحركة مرات عدة، وراقبته بعيني مليئتين بالأمل. استغرق الأمر قليلًا من الوقت، لكن القرد أخيرًا استجاب لإشاراتي، وكأنه فهم ما أحاول قوله. اقترب مني بحذر، ثم مدّ ذراعيه الطويلتين ورفعني بقوة إلى أعلى، حتى وضعت قدمي فوق الغصن.

لم تتوقف دهشتي هنا. القرد أمسك بي مجددًا ورفعني فوق ظهره كما كنت أتمنى! انطلق بي بين الفروع، متأرجحًا بخفة ورشاقة بين الأشجار العالية. شعرت أنني أعيش لحظة مليئة بالمغامرة والإثارة، رحلة غير متوقعة على ظهر صديق من عالم البرية.

كانت تلك اللحظات أشبه برحلة من القصص الخيالية، مفعمة بالإثارة والمغامرة. عندما كنت محمولًا على ظهر الشمبانزي وهو يهبط بي برشاقة من أعلى الشجرة، كانت عيني تلتقط تفاصيل الطبيعة من حولي وكأنني أراها للمرة الأولى. لفتت الحرباء انتباهي بحيلتها المذهلة للتخفي، تلونها المتغير الذي يعكس ذكاءها الفطري في الهروب من أعدائها. كانت تتحرك بتلك الطريقة السلسة التي تعكس قدرتها على التكيف مع بيئتها بكل دهاء.

وما إن وصلت إلى أرض الغابة بأمان، شعرت بامتنان عميق لهذا الشمبانزي الذي كان بمثابة بطلي في هذه الرحلة. رصدت عيناي السلحفاة التي أسرعت بحذر إلى الاختباء داخل قلعتها الصخرية بمجرد أن رأتنا. كان تصرفها يعكس طبيعتها الحذرة واستراتيجيتها في مواجهة المخاطر، محتمية بحصنها الصلب الذي يوفر لها الأمان.

رؤية هذه المشاهد عن قرب جعلتني أتأمل في عبقرية الطبيعة وتنوع أساليبها في حماية كائناتها وإبراز جمالها الخفي. كان لهذا اليوم أثر عميق في نفسي، حيث تعلمت فيه أن القوة ليست دائمًا في المواجهة، بل في الابتكار والتكيف، وأن كل كائن في الطبيعة يحمل سرًا يُعلّمنا شيئًا عن الحياة.

في تلك اللحظة، شعرت بامتنان عميق وفخر كبير تجاه التجربة التي كنت جزءًا منها. أن أكون شاهدًا على هذا التعاون الفريد بيني وبين ذلك الشمبانزي الذكي، وأن أنجو من خطر محقق، كان بمثابة تحقق حلم مستحيل في أحلك الظروف.

عندما رأيته يودعني، مُلوحًا بيديه، عادت إلى قلبي مشاعر من الفرح الممزوج بالحزن. ابتسامتي كانت مليئة بالامتنان له، لكن في داخلي كان هناك إحساس قوي بالخوف من أن يكون هذا اللقاء هو الأخير، مع العلم بأن الشمبانزي، مثل العديد من الكائنات، يواجه خطر الانقراض بسبب الجشع البشري. قطع الأشجار التي تمثل مأوى هذه الكائنات والصيد الجائر وانتشار الأمراض كلها تُشكل تهديدات حقيقية على بقائهم.

رؤية هذا الشمبانزي الذي أصبح صديقًا لي جعلتني أشعر بالمسؤولية، ليس فقط تجاهه ولكن تجاه الطبيعة بأكملها. ربما الدعاء له بالنجاة هو ما استطعت تقديمه في تلك اللحظة، ولكن أعلم أن هذه التجربة تحثني على التفكير بشكل أعمق في أهمية حماية البيئة والمخلوقات التي تشاركنا الأرض.

عندما خطرت لي هذه الأفكار، شعرت بأنني بحاجة إلى أن أكون صوتًا داعمًا للقضايا البيئية، وللعمل على رفع الوعي حول المخاطر التي تواجه الكائنات مثل الشمبانزي. ربما يكون الحزن الذي شعرت به تجاه هذا الكائن هو بداية لتحويل الألم إلى طاقة تغيير إيجابية.

بينما كنت غارقًا في محاولة فهم كيف يمكنني العودة من حيث أتيت، وسط الغابة التي تمتد بلامحدودية وتنبض بالتنوع الطبيعي المذهل، كان الهاتف في جيبي بمثابة بصيص من الأمل. إلا أنني لم أستطع استخدامه في الوقت المناسب بسبب المفاجآت التي عصفت بي. في تلك اللحظة، كنت على وشك إخراجه والبحث عن حل، لكن صوت الصراخ القادم من بعيد شتّت انتباهي تمامًا.

الصوت قادني إلى مشهد مهيب ومؤثر. هناك أمامي، يقف فيل ضخم، وزنه الهائل الذي يصل إلى سبعة آلاف كيلوغرام يبرز عظمته كأكبر الثدييات البرية على وجه الأرض، لكن حالته كانت تنبض بالحزن والضعف. جسده كان يحمل آثار جروح وكدمات واضحة، دليلًا على معركة خاضها ولم تتركه سالمًا.

حاولت أن أستنتج ما الذي قد حدث له. ربما كان ضحية شجار عنيف مع فيل آخر، انتهى بفقدانه قطيعه وبقائه وحيدًا. أو ربما تمكن من الهرب بصعوبة من مطاردة صيادين شرسين. مشهد الفيل بهذه الحالة جعلني أشعر بارتباط عميق بحاله؛ مثلي، هو أيضًا وحيد وتائه في الغابة التي ربما كانت في يوم ما موطن أمان له.

رغم أنني لم أملك أدلة تثبت تخميناتي، إلا أن لحظة الوقوف أمام هذا العملاق اللطيف ذكرتني بأن الغابة ليست فقط مكانًا للخطر، بل أيضًا موطنًا للحكايات والمشاعر التي تتناغم فيها القوة مع الضعف.

بينما اقتربت من الفيل، شعرت باندفاع غريب من التعاطف والرغبة في مساعدته. كان واضحًا أن حالته تحتاج إلى بعض الاهتمام، فبدأت بتضميد جراحه السطحية باستخدام الماء الذي أخرجته من قارورتي، محاولة بسيطة لكنها مليئة بالإصرار والرغبة في فعل شيء إيجابي. لم تكن هناك حاجة لمحاولة تخمين سبب إصاباته في تلك اللحظة؛ لقد شعرت أن الوقت المناسب لفهم القصة قد يأتي لاحقًا، عندما يكون الفيل في حالة أفضل.

عندما قدمت له الماء، لاحظت كيف كان عطشانًا بشدة. بدأ يدخل خرطومه الطويل في عنق القارورة، مستخدمًا إياه بمهارة لا تصدق لسحب الماء وشربه. هذه الحركة البسيطة عكست ذكاءه وطبيعته المهيبة. بعد أن ارتوى، قام برش ما تبقى من الماء على جسمه كأنه يحيي تلك اللحظة كفرصة للاستحمام والانتعاش. كان مشهدًا رائعًا يُظهر كيف يُجسد هذا الكائن العملاق الطبيعة في أبسط صورها وأجملها.

خرطومه الطويل الذي كان يستخدمه للتنفس، وللشم، وللشرب، أظهر مرونة مذهلة في قدرته على التكيف والتفاعل مع العالم من حوله. شعرت وكأنني أقف أمام معلم هائل للطبيعة، يُظهر لي كيف يمكن أن تكون البساطة مدهشة.

تحت شمس الغابة الحارقة، وبينما كنت أحتمي بمظلتي، شعرت بشدة الحرارة تتسلل عبر ثنايا الجو، وكان العرق يتصبب من جبيني، يجعلني أُدرك مدى صعوبة البقاء في مثل هذه الظروف. بالنسبة للفيل، كانت محاولاته لتخفيف الحرارة تكشف عن حكمة الطبيعة في تكيّف كائناتها. رفرفة أذنيه الكبيرتين كانت أشبه بمروحة طبيعية يحركها بجهد، محاولًا تبريد جسمه الضخم.

لكن مع شدة الحرارة، أدرك الفيل أن محاولته الأولى ليست كافية. هنا، لجأ إلى خزان حكمته الثاني: خرطومه الطويل الذي يحمل وظائف متعددة. رأيته يرش به طبقة من التراب والغبار والوحل على جلده، في حركة أشبه بإنشاء درع واقٍ. كان هذا الغطاء الطبيعي أكثر من مجرد تبريد، فقد حماه من أشعة الشمس الحارقة، ووفّر له درعًا فعالًا ضد لدغات الحشرات التي تعج بها الغابة.

مشهد الفيل وهو يطبق هذه الاستراتيجيات الطبيعية ببراعة كان مدهشًا. رأيته يسترخي بعد ذلك، وكأنه يحتفل بالراحة التي وجدها بفضل هذه الحيل البسيطة والمؤثرة. بالنسبة لي، كانت هذه اللحظة درسًا عظيمًا في التأقلم مع المواقف الصعبة واستخدام الموارد المتاحة للتغلب على التحديات.

بينما كنت ممتنًا للفيل الذي رفعني بخرطومه الطويل ووضعني على ظهره، شعرت وكأنني أعيش تجربة من عالم آخر، محاطًا بجمال الطبيعة وسحرها. كان السير على ظهر الفيل تجربة فريدة من نوعها، تجمع بين الدفء والامتنان لهذا العملاق اللطيف الذي أصبح رفيقًا لي في رحلتي.

عندما نظرت للأعلى، رأيت النسر الذي كان قبل لحظات يمسك بي بمخالبه، وقد انتقل الآن ليصبح الصياد الذي يقتنص الثعبان بمنقاره الحاد، استعدادًا لالتهامه. كان هذا المشهد رمزًا حيًا للسلسلة الغذائية التي تحكم كل شيء في الطبيعة. الثعابين تتغذى على الأرانب، والنسور تتغذى على الثعابين، ثم تعود النسور لتتحلل وتصبح جزءًا من التربة التي تغذي النباتات، لتبدأ دورة الحياة من جديد.

تأملت في هذا النظام البيئي المعقد والدقيق، حيث خلق الله كل شيء بميزان محكم. أي خلل في هذه الدورة، سواء بنقص أو زيادة في أعداد الحيوانات المفترسة أو الفرائس، يؤدي إلى اضطراب التوازن البيئي الذي تعتمد عليه الحياة كلها.

وقفت في تلك اللحظة متعجبًا، وقلت في داخلي: "سبحان الخالق العظيم الذي جعل هذا الكون متماسكًا بكل تفاصيله." شعرت أنني جزء صغير من هذا النظام المتكامل، وأن هناك الكثير الذي يمكننا أن نتعلمه من الطبيعة في كيفية تحقيق التوازن والاستدامة.

كان مشهدًا يحمل مزيجًا من الدهشة والدرس العميق. ذلك الثعبان الذي كان على وشك أن يتخلص من جلده القديم، كجزء من دورة

حياته الطبيعية، توقف فجأة أمام القوة الأكبر التي يمثلها النسر. عملية انسلاخ الثعبان، التي تعد رمزًا للتجديد والتخلص من القديم، تبدو دائمًا وكأنها فرصة للتجدد والانطلاق بشكل أفضل، لكنها أيضًا لحظة ضعف يتعرض فيها الثعبان لخطر المهاجمين.

انسلاخه، الذي يهدف إلى التخلص من الحشرات والقوارض التي تقض مضجعه وتعيق راحته، أظهر مدى التحديات التي يواجهها الكائن في سبيل الحفاظ على صحته وحياته. ومن الواضح أن تلك القشور التي ظهرت على جلده كانت دليلًا على استعداده لبدء هذا التحول الطبيعي. لكن النسر، بذكائه وغريزته، انتهز تلك الفرصة وأمسكه بمنقاره المقوس، ليكمل دورة الهرم الغذائي التي لا تتوقف.

هذه اللحظة تعكس درسًا مذهلًا حول الطبيعة؛ كيف تمتزج القوة مع الضعف، وكيف تعتمد الحياة على توازن دقيق بين الهروب من المخاطر والوقوع فيها. إنها صورة حية عن التعقيد والتناغم الذي يحدد حياتنا كبشر أيضًا، وكيف أن كل لحظة يمكن أن تحمل تحديًا وفرصة في آنٍ واحد.

ما رويته عن الفيل تكشف عن عظمة هذا الكائن الرائع الذي يُعد من أعظم المهندسين الطبيعيين في الغابة. كانت لحظات التوقف المتكررة للفيل، حيث يستخدم خرطومه الذي يُمثل شفته العليا لالتقاط أوراق الأشجار ووضعها في فمه، مشهدًا يعكس انسجامه العميق مع الطبيعة. كونه نباتيًا يعتمد على البذور والأعشاب والشجيرات واللحاء، يجعل دوره في البيئة أكثر من مجرد تغذية، بل يُسهم في توازن الأنظمة البيئية.

ما يثير الإعجاب حقًا هو الطريقة التي يقتلع بها الأشجار بأنيابه الحادة ليس فقط للحصول على الغذاء، بل لتوسيع المساحات وتوفير طرق للحيوانات الأخرى. الحمر الوحشية، بألوانها الساحرة المخططة بالأبيض والأسود، تستفيد من ممراته وطرقه التي يفتحها داخل السافانا، مما يمنحها الحرية للجري والانطلاق بسرعتها الكبيرة دون عوائق.

ومع ذلك، فإن اللقب "مهندس الغابة" يتجاوز هذه المهام؛ فقدرة الفيل على حفر مجاري مائية بأنيابه القوية للحصول على المياه تُبرز دوره كبطل في مواجهة جفاف الأنهار. فهو ليس فقط يُلبي احتياجاته، بل يُسهم في إنقاذ الحيوانات الأخرى التي تعاني من قلة الموارد المائية، مما يجسد روح التعاون والتناغم في عالم الطبيعة.

مشهد الحمر الوحشية وهي تجري بسرعة في البراري يكشف عن كفاح مستمر للبقاء في بيئة قاسية ومتغيرة. تعتمد تلك الحيوانات الجميلة على الأعشاب والشجيرات في غذائها، لكنها تعاني بشكل كبير من ندرة المياه في مناطق السافانا الجافة، التي تتأثر بشدة بنقص الأمطار. هذا العطش المستمر يدفعها للبحث بلا توقف عن موارد مائية، مما يجعلها أكثر عرضة للمخاطر.

ومن بين هذه المخاطر الصيادون المحليون الذين يطاردونها بشكل شرس، مسلحين ببنادقهم ومركباتهم السريعة، طمعًا في الاستفادة من جلود الحمر الوحشية ذات الخطوط الساحرة. هذه الممارسات الجائرة تجعل الحمر الوحشية تواجه خطر الانقراض، شأنها شأن

العديد من الحيوانات الأخرى التي تحاول البقاء في عالم يضيق عليها تدريجيًا بسبب النشاطات البشرية.

كانت تلك اللحظة مذهلة، حينما ظننت أن الزرافات بجوار قطعان الحمر الوحشية تتبادل الود والعناق تعبيرًا عن الحب والتآلف، لكن الحقيقة كانت أبعد عن تلك الصورة المليئة بالرقة. الزرافات، بأطرافها الطويلة ورقابها التي تُباهي بها بأنها أطول الكائنات البرية، كانت تخوض صراعًا قويًا.

السلوك الذي بدا للوهلة الأولى وكأنه تعبير عن الحب، كشف عن نفسه على أنه معركة شرسة بين الذكور. بدأت المشاهد بالتصاعد، حيث تحول العناق إلى نطح بالرأس وضرب بالرجلين الخلفيتين. الذكور تتقاتل بشراسة، وكل حركة تُظهر قوة وجسارة لا مثيل لهما، من أجل السيطرة على أفراد المجموعة.

كانت المعركة دليلاً على القانون القاسي الذي يحكم حياة الغابة: البقاء للأقوى. المنتصر، الذي برهن على قوته وهيمنته، حصل على حق السيطرة على الإناث، بينما الخاسر عانى من جروح وكدمات نتيجة المعركة. إنها صورة حية عن الطبيعة التي لا تمنح مكانًا للضعفاء، حيث يسود الكفاح والبحث المستمر عن النفوذ والتكاثر.

هذا المشهد يعكس جمال الغابة في قوتها وتناغمها، ولكنه أيضًا يُظهر جانبها القاسي الذي يجعلنا نتأمل في قوانين الحياة ودوراتها التي لا ترحم.

مشهد الزرافة الطويلة وهي تميل نحو الماء لتشرب يعكس جمال الطبيعة في تصميمها الفريد. فتحها ساقيها الطويلتين إلى أقصى حد، في وضع يبدو غريبًا ولكنه ضروري، يُظهر كيف تتكيف الزرافة مع طول رقبتها الذي يصل إلى مترين تقريبًا. هذا التكيف الرائع يتيح لها الوصول إلى المياه والحفاظ على توازنها أثناء الشرب.

أما جلدها المبقّع بلطخات كستنائية اللون، فيمنحها ميزة إضافية تكمن في قدرتها على التمويه والتخفي بين الأعشاب والأشجار. لونها ونمط بقعها يجعلها شبيهة بالنمر، ويساعدها على حماية نفسها وأطفالها الصغار من الحيوانات المفترسة مثل الأسود والضباع والنمور، التي تتربص دائمًا بحثًا عن فرصة للاصطياد.

***

.

جرائم في غابات الكونغو

كان المشهد أشبه بفصل مأساوي من قصة الطبيعة، حيث رأيت شجرة عملاقة، بارتفاع يصل إلى 30 مترًا، تسقط أمامي أنا والفيل، وكأنها تُعلن نهاية حياتها بطريقة مأساوية. جذعها المبتور وأغصانها المتهاوية كانت شاهدة على جريمة ارتُكبت بحقها، جريمة لم تكن تستحقها.

هذه الشجرة، التي كانت رمزًا للعطاء، لم تؤذِ أحدًا، بل كانت مصدرًا للظل، الهواء النقي، والمأوى للعديد من الكائنات. ومع ذلك، تم اقتلاعها من جذورها باستخدام مناشير معدنية وفؤوس حادة، وكأنها ضحية بريئة في معركة لا تعرفها. سقوطها لم يكن مجرد حدث عابر، بل كان صدمة أحدثت رجّة قوية في الأرض، تاركة تشققات وتصدعات في قشرتها السطحية، وكأن الطبيعة نفسها تبكي على فقدانها.

ما حدث كان انعكاسًا لجشع الإنسان، حيث يتم قطع الأشجار العملاقة في غابات الكونغو للحصول على الأخشاب أو لتوسيع الأراضي الزراعية، دون التفكير في العواقب البيئية. هذه الجرائم لا تؤدي فقط إلى تدمير الغابات، بل تُهدد التوازن البيئي بأكمله، مما يجعلنا نتساءل: إلى متى ستستمر هذه الاعتداءات على الطبيعة؟

كانت تلك اللحظة أشبه بالنجاة من كابوس محقق. لو أن سقوط الشجرة العملاقة تزامن مع وجودي أنا والفيل تحتها، لأصبحنا بلا شك جزءًا من الأرض، جسدينا مسحوقين تحت ثقلها العظيم. تفادي الكارثة بثوانٍ معدودة كان بمثابة هبة من القدر، لكن المشهد الذي تبع ذلك حمل مأساة لا يمكن تجاهلها.

سقوط الشجرة بهذا الشكل القاسي لم يُؤثر فقط على الأرض التي ارتطمت بها، محدثة تشققات وتصدعات، بل أهلك العديد من الكائنات التي اعتمدت عليها كمصدر للحياة. الحشرات والزواحف والطيور التي كانت تبني أعشاشها على الأغصان، وجدت نفسها فجأة أمام نهاية مروعة. الحيوانات التي احتمت بها بحثًا عن الغذاء والظل تعرضت للسحق تحت ثقل الجذع والأغصان. أما تلك التي نجت، فقد فرت مذعورة من هول الكارثة، تبحث عن مأوى جديد يوفر لها الأمان والغذاء والماء.

هذا المشهد يعكس كيف يمكن أن يؤدي تدخل الإنسان غير المسؤول في الطبيعة إلى عواقب وخيمة. غابات الكونغو، المليئة بالحياة والتنوع، تعاني من هذه الاعتداءات المستمرة التي تُخل بتوازنها، مما يهدد الكائنات التي تعتمد عليها للبقاء.

كنت على وشك أن أصبح ضحية لهذه الكارثة البيئية المفجعة، إذ أن سقوط تلك الشجرة العملاقة حدث قبل مروري أنا والفيل بثوانٍ معدودة، ولولا ذلك، لتحطمت أجسادنا وسُحقنا تحت ثقلها الهائل، ولأصبحت حياتنا مجرد ذكرى في عداد الموتى. ورغم نجاتنا، كان المشهد الذي خلفه سقوطها لا يُنسى، حيث شاهدت الدمار الذي أحدثته ليس فقط على الأرض، بل على مئات الكائنات التي اعتمدت عليها.

رأيت الحشرات والزواحف والطيور، التي كانت تجد الأمان على فروعها وأغصانها، وقد هلكت في لحظة مأساوية. الحيوانات التي كانت تقف تحت الشجرة تتغذى على لحائها أو تبحث عن ظلها، لم يكن لها نصيب من النجاة، إذ سُحق العديد منها تحت وزنها المتهاوي. أما من نجا منها، فقد فر مذعورًا يبحث عن مأوى جديد بعيدًا عن هذا الدمار الذي لم يكن له يد فيه.

لم تكن هذه الشجرة وحدها الضحية؛ بل دمر سقوطها الأشجار والشجيرات المجاورة، وكأن الطبيعة تصرخ طلبًا للرحمة في وجه تدخل الإنسان. لم أستطع منع دموعي من الانهمار، وأنا أشهد الفساد الذي ألحقه الإنسان بهذه الجنة الخضراء. كنت دائمًا أستمع إلى أخبار تغير المناخ وأشاهد غضب الطبيعة على شاشات التلفزيون، لكنني اليوم أدركت الحقيقة بالكامل: هذه الكوارث ليست سوى نتيجة لتصرفاتنا.

الأشجار، التي تمنحنا الحياة من خلال إطلاق الأكسجين وامتصاص ثاني أكسيد الكربون، هي مفتاح التوازن البيئي. وقطعها الجائر هو السبب وراء الاحتباس الحراري وكل الكوارث الطبيعية التي نشهدها: ارتفاع درجات الحرارة، ذوبان القطبين، الفيضانات والأعاصير، وحتى احتمال اختفاء مدن بأكملها في المستقبل. هذه الحقيقة المؤلمة جعلتني أقول بكل خشوع: "سبحان الخالق العظيم الذي جعل الطبيعة تعمل بمقادير دقيقة، ونحن الذين أفسدناها."

كان مشهد القطع المستمر للأشجار في الغابة أشبه بمأساة تتكرر بلا رحمة. لم تكن تلك الشجرة العملاقة وحدها الضحية، بل تبعتها العديد من الأشجار الأخرى التي أُزيلت من جذورها وسُلبت حياتها، لتُقطع إلى أجزاء صغيرة تُسهل عملية النقل. كل قطعة من تلك الأشجار كانت تحمل قصة الطبيعة، ولكنها انتهت في شاحنات ضخمة تُحوِّلها إلى مجرد خشب.

رؤية البشر وهم يملؤون هذه الشاحنات بالأجزاء الصغيرة، استعدادًا لبيعها، كانت صادمة. سواء تم استخدامها في صناعة الأثاث أو حرقها لتوفير الوقود، لم يكن هناك أي اعتبار للعواقب البيئية التي ترافق هذا العمل. كانت الأشجار، التي تعمل كرئة الأرض وتمتص ثاني أكسيد الكربون وتطلق الأكسجين، تتحول إلى مجرد وسيلة لتحقيق مكاسب مادية، بينما يتجاهل الإنسان تأثير ذلك على التوازن البيئي ومستقبل الكوكب.

هذا الاستغلال الجائر واللامبالي للأشجار لم يكن فقط إضرارًا بالغابات، لكنه أيضًا تهديد مباشر للمناخ والمجتمعات الحيوية التي

تعتمد عليها الغابة، من نباتات وحيوانات وحتى البشر أنفسهم. اليوم، أصبحت هذه الجرائم بحق الطبيعة دعوة لإعادة النظر في طريقة التعامل معها، وإيجاد حلول أكثر استدامة للحفاظ على الكوكب.

بينما كنت أراقب المشهد، شعرت وكأنني أشهد جريمة أخرى تُرتكب بحق الطبيعة بواسطة مجموعة من البشر، سواء من السكان المحليين في الكونغو أو الأجانب القادمين من خارجها، شعرت بدهشة كبيرة لما كانوا يفعلونه في قلب الغابة. رأيت الجرافات تعمل بلا هوادة، تزيل الغطاء النباتي الأخضر الذي يُعتبر شريان الحياة للحيوانات، وتُدمر موطنها الأساسي. اقتربت أكثر لأكتشف أنهم كانوا يستخرجون مواد خام صلبة لامعة، إحداها سوداء اللون والأخرى رمادية. عرفت بعد ذلك أنهما الفحم والكولتان، وهما من الموارد غير المتجددة التي تُستنزف بلا رحمة، رغم أنها مهددة بالنفاد.

ما زاد من حزني هو الطريقة التي تعاملوا بها مع هذه الكنوز الطبيعية. لم يكتفوا باستخراجها، بل أضافوا الزئبق السام إلى الكولتان لإذابته، مما أدى إلى تلوث التربة والمياه. هذا التلوث لم يقتصر على النباتات التي ذبلت وماتت، بل امتد ليقتل الحيوانات التي تعتمد عليها، والأسماك التي طفت نافقة على سطح الأنهار. كان المشهد أشبه بكارثة بيئية تتسع دوائرها لتشمل كل أشكال الحياة.

التصحر الذي بدأ يزحف على الأرض نتيجة فقدان التربة لخصوبتها وتحولها إلى أرض جدباء غير قادرة على دعم نمو

الزروع والنباتات كان بمثابة إعلان عن موت الطبيعة في تلك المنطقة. كل هذا بسبب الجشع البشري الذي لا يترك للطبيعة فرصة لتضميد جراحها أو استعادة توازنها. شعرت بغصة في قلبي وأنا أرى كيف يمكن أن يؤدي هذا السلوك إلى تدمير مستقبل البشرية بأكملها.

لم يتوقف الأمر عند استخراج هذه الكنوز الثمينة وبيعها بأثمان باهظة فقط، بل لجأ هؤلاء البشر إلى إضافة الزئبق السام إلى الكولتان لإذابته وتحويله من حالته الصلبة إلى السائلة. هذه العملية تسببت في تسرب الزئبق السام إلى التربة والمياه، مما أدى إلى تلوث الأنهار التي كانت تروي النباتات، فتسممت هذه النباتات وبدأت تذبل وتموت. نتيجةً لذلك، نفقت الحيوانات التي تغذت على تلك النباتات الملوثة، وظهرت أسماك نافقة طافية على سطح الأنهار.

استنكرتُ بقلبي كل ما رأيته من تخريبٍ وتدميرٍ للغابة والبيئة، وتمنيتُ لو أنني أستطيع إصلاح كل ذلك الفساد أو تغييره. ولكن في الحقيقة، لا أملك سوى وسيلة واحدة يمكنني بها الإسهام، وهي كتابة مقالٍ عن إفساد الإنسان للغابة وأضرار ذلك على البيئة والبشرية. سأعمل على نشر المقال على موقعي الإلكتروني؛ لنشر الوعي البيئي بين الناس، لعله يُلهم كل إنسانٍ ذي عقلٍ وقلبٍ ليتحرك ويفعل ما في وسعه لإنقاذ البيئة من هذا العدوان السافر، ولو كان ذلك في محيط أسرته أو قريته، أو في مدينته ووطنه.

على الفور، أخرجت هاتفي، وبدأت ألتقط العديد من الصور المعبّرة عن الفساد البيئي الذي تتعرض له الغابات. التقطتُ صورًا تُوثق كيف يقطع الناس الأشجار بطرق غير مشروعة، وصورًا أخرى للقناصين وهم يزاولون الصيد الجائر بوحشية، وصورًا للقرويين الكونغوليين يجرفون التربة، بحثًا عن المعادن النفيسة أحيانًا، أو لبناء مساكن عمرانية أحيانًا أخرى، أو لزراعة المحاصيل الزراعية كالقمح والذرة الصفراء والأرز، وأيضًا زراعة المطاط الذي يدخل في صناعات متعددة مثل إطارات السيارات، والأسلاك الكهربائية، والأحذية. سأرفق هذه الصور مع المقال الذي أنوي نشره على موقعي بمشيئة الله تعالى.

يا للأسف، رغم أنني كنت آمل أن تتمكن القرى من الاستفادة من زراعتهم لتوفير الغذاء والقضاء على الفقر والجوع والمجاعات، إلا أن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن ذلك. استخدم القرويون أدوات زراعية تقليدية وغير متطورة مثل المنجل والجرار الزراعي والمحراث في زراعة الأراضي وحرثها وحصاد المحاصيل، مما أدى إلى قلة الإنتاج الزراعي من الحبوب الغذائية. الأمر طبيعي إذا أخذنا في الاعتبار أنهم لا يستطيعون شراء الماكينات الزراعية الحديثة المتطورة بسبب الفقر الذي يُطبق عليهم من كل جانب.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الوضع هي استمرار انتشار الفقر والجوع. هذه الظروف دفعت المزارعين إلى الهجرة من القرى إلى

المدن، حيث وجدوا أنفسهم يواجهون البطالة والازدحام السكاني الشديد، مما زاد من معاناتهم بدلًا من أن يحلها.

الموقف كان يحمل في طياته مشاعر من الفزع والدهشة لم أشهدها من قبل. بينما كنت أُراقب الفيل وهو يسير بي فوق ظهره، شعرت فجأة بزمجرة صاخبة تخترق الهواء من الخلف. التفتُّ سريعًا لأرى مصدر الصوت، وما رأيته كان كابوسًا يتجدد: سيارة النقل نفسها التي قتلت حراس الغابة، تطاردنا بسرعة جنونية وكأنها لا تُريد لنا فرصة للنجاة.

الخوف اجتاحني كالإعصار، ووجدت نفسي أحاول أن أكتم أنفاسي التي لم تتوقف عن التلاحق، وأسيطر على دقات قلبي التي تكاد تنفجر. أما الفيل، رفيق النجاة، كان يصرخ بصوت مُدوٍ قوي، وكأنه يُطلق نداءً يحذر الغابة من الخطر الذي يُلاحقنا.

مشهد الفيل وهو يركض بقدميه الأماميتين والخلفيتين في تزامن أثار دهشتي الشديدة؛ لم أكن أتخيل أن الفيل، رغم ضخامته، يمكن أن يركض بهذه السرعة. كانت قوة الفيل وقدرته على التحمل هي ما أعطاني بصيصًا من الأمل في هذه اللحظة العصيبة.

بينما كنت أحاول استجماع شجاعتي، محاولًا تهدئة نفسي وترويض ذعري الذي بدا وكأنه يُطبق على أنفاسي، شعرت بغيمة من الهلع تسيطر على كل تفكيري. استمرت التساؤلات تدور في ذهني كالإعصار: هل هذه المطاردة الوحشية هي انتقام لأنني اكتشفت حقيقتهم القاتمة؟ أم أنهم يخشون أنني رأيت رقم السيارة التي كانوا

يقودونها، وأخطط لإبلاغ الشرطة؟ أو ربما، وربما فقط، الفيل الذي يشاركني هذه الرحلة هو هدفهم! لكن لمَ يستهدفون هذا المخلوق الطيب؟ هذا العملاق الذي لا يملك سوى قلب نابض بالحياة وعينين ترقبان جمال الطبيعة.

وسط دوامة التفكير هذه، تمالكت نفسي وأخرجت الهاتف من جيبي كأنه طوق نجاة وسط عاصفة عاتية. أسرعت بإرسال موقعي لأبي وعمي عبر التطبيق، متشبثًا بخيط من الأمل أن يتلقيا الإشارة. لكن قبل أن يكمل الهاتف مهمته، انفجرت زمجرة السيارة بالقرب منا، ولم تمض لحظات حتى أصاب سهم مميت، مغموس في مادة مخدرة، ساق الفيل المسكين. شعرت بأن قلبي انكمش في صدري، فيما رأيت العملاق يترنح، ثم يسقط على الأرض كأبراج انهارت في زلزال، مُحدثًا هزةً أرضيةً عنيفة زلزلتني معها.

مع سقوطه، وجدت نفسي أسقط من ارتفاع شاهق، جسدي يرتطم بالأرض بقوة تشبه ارتطام الصخر بالصخر. الألم تخلل عظامي، وكأنها تُصرخ تحت وطأة السقوط. حاولت النهوض، رغم أن أنفاسي كانت ثقيلة، والدماء تكاد تغلي في عروقي من تأثير الأدرينالين الذي اجتاح جسدي. نظرت حولي، رأيت الهاتف الذي كان فرصتي الأخيرة للنجاة وقد تهشم، مما أضاف طبقة جديدة من اليأس إلى هذا المشهد المروع.

رغم كل الألم والخوف، جمعت ما تبقى من قوتي وركضت بكل طاقتي، كأن الريح تدفعني للأمام. قلبي كان ينبض كأنه يريد الهرب

من صدري، والعرق كان يغمر وجهي، يجعل الرؤية ضبابية. لم أتوقف حتى وجدت شجرة ضخمة، أصبحت ملاذي الوحيد، اختبأت خلفها وأنا أحاول لملمة أنفاسي المتقطعة، متمنيًا ألا يكتشف أولئك الوحوش مكاني. شعرت في تلك اللحظة، أن النجاة ليست فقط فعلًا جسديًا، بل هي معركة نفسية تحتاج إلى شجاعة تفوق كل التصورات.

حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أُعيد إرسال موقعي لأبي، رغم أن الهاتف كان في حالة يُرثى لها، بالكاد يعمل، وكأنه يُصارع للبقاء مثلما كنتُ أنا. لم أستسلم، وواصلت المحاولة بلا توقف، لأن هذا الهاتف كان الأداة الوحيدة التي تربطني بالعالم الخارجي في تلك الغابة المنعزلة، الخالية من أي وسيلة اتصال أو تواصل. وأخيرًا، استجاب الهاتف، وكأنه يُدرك أن حياتي تعتمد عليه.

بينما كنتُ أختبئ خلف الشجرة، أنظر بحذر واحتراس إلى صديقي الفيل الذي أحببته كثيرًا، شعرتُ بغصة في قلبي. سقطت دموعي حارة، وكأنها تعكس حرارة الألم الذي يعتصرني، لتبلل وجنتيّ بحزن عميق على ما أصابه. كان الفيل يرقد بلا حراك، جسده الضخم الذي كان رمزًا للقوة أصبح الآن جثة هامدة، ضحية لجشع البشر.

تساءلتُ بيني وبين نفسي، لماذا قتل هؤلاء الأوغاد هذا الفيل اللطيف؟ ما الجُرم الذي ارتكبه في حقهم ليُعاقب بهذه الطريقة الوحشية؟ لكن دهشتي لم تدم طويلًا، إذ رأيتهم ينزعون الأنياب

العاجية من جانبيّ فمه، تلك الأنياب التي عرفتُ لاحقًا أنها تُباع بأسعار باهظة، وتُستخدم في صناعة الحلي والديكور. أدركتُ حينها أن هذا الفيل لم يكن سوى ضحية لجشع الإنسان الذي لا حدود له، وأن هذا الجشع هو السبب وراء تعرض فيل الأدغال الأفريقي لخطر الانقراض.

كان المشهد مؤلمًا، ليس فقط بسبب فقدان هذا الكائن الرائع، بل لأنه يُجسد مأساة أكبر تتعرض لها الطبيعة بأكملها. شعرتُ أنني أمام مسؤولية كبيرة، مسؤولية أن أُخبر العالم بما رأيته، أن أُحارب هذا الجشع بالكلمات والصور، وأن أُحاول بكل ما أملك أن أُعيد التوازن للطبيعة التي تُصارع للبقاء.

كانت تلك اللحظة أشبه بمواجهة مباشرة مع الخطر الذي كنت أهرب منه طوال الوقت. بينما كان المجرمون يستعدون للرحيل بعد أن انتهوا من نزع الأنياب العاجية للفيل المسكين، سمع أحدهم صوت بكائي الذي لم أستطع كتمه، وكأن حزني كان أقوى من قدرتي على الاختباء. تتبع الصوت بخطوات ثابتة، حتى وصل إلى مكاني، وأمسكني دون تردد.

حاولت بكل ما أملك من قوة أن أقاومه، لكن قبضته كانت كالصخرة، لا يمكن الإفلات منها. استخدمت ذراعيّ وقدميّ في محاولة يائسة للهرب، وصرخت بأعلى صوتي، وكأنني أستدعي النجدة من أعماق الغابة. لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، وكأن القدر قرر أن يضعني في مواجهة مباشرة مع هؤلاء الوحوش.

بينما كان أحدهم يُشغّل محرك السيارة استعدادًا للمغادرة، شعرتُ بأن العالم من حولي يضيق، وكأنني أُساق إلى مصير مجهول لا أملك حياله أي قوة. كانوا قد قيّدوني بحبال غليظة، أحكموا بها وثاق يديّ وقدميّ، ثم ألقوا بي في صندوق السيارة الخلفي كأنني مجرد غرض بلا قيمة. كان الظلام يحيط بي، لكن داخلي كان يعجّ بالأفكار المُفزعة التي لم أستطع إيقافها.

قلت لنفسي: ربما سيقتلونني ويلقون بجثتي على جانب الطريق، أو ربما سيجبرونني على العمل معهم في تلك الأعمال الإجرامية الوحشية التي لا أستطيع حتى تخيلها. فكرة أنني قد لا أعود أبدًا إلى وطني وأسرتي كانت كافية لتُشعل في داخلي نارًا من الخوف واليأس. تحركت السيارة بي إلى حيث لا أعلم، وكأنها تسير بي نحو الجحيم ذاته. لم أكن أعرف ماذا ينتظرني مع هؤلاء الأوغاد، لكن كل ما كنت أتمناه في تلك اللحظة هو أن يكون هذا مجرد كابوس مُخيف، وأن أستيقظ منه سريعًا لأجد نفسي في أحضان أمي، على أرضي وبين أهلي.

بكيت كثيرًا، حتى شعرت بأن جفوني قد تورمت من شدة البكاء. كانت دموعي تحمل كل الألم والخوف الذي يعتصر قلبي. وسط هذا الظلام، سمعت صوتًا داخليًا، بدا وكأنه صوت ضميري، يقول لي: "ربما يكون هذا عقابًا لي، ربما أستحق كل ما يحدث لي من أهوال ومصائب. ربما كان يجدر بي أن أطيع كلام والدي، وألا أخالف أوامره أبدًا." كانت تلك الكلمات كالسكاكين التي تُمعن في جراحي، تزيد من شعوري بالذنب والندم.

لكن رغم كل هذا، كان هناك جزء صغير بداخلي يرفض الاستسلام. كنت أبحث عن بصيص أمل، عن فرصة للنجاة، عن طريقة أستطيع بها أن أُعيد لنفسي حريتي وأعود إلى حياتي. كان هذا الصراع الداخلي بين اليأس والأمل هو ما أبقاني مستيقظًا، متشبثًا بالحياة رغم كل شيء.

قطعت أفكاري أصوات سيارات الشرطة وهي تقترب بسرعة، كأنها تحمل معها بصيصًا من الأمل وسط هذا الكابوس الذي أعيشه. أضواؤها كانت تضيء وتخفت في إيقاع منتظم، تنشر النور في المكان، وتبث بداخلي شعورًا بالسرور الذي لم أكن أظن أنني سأشعر به في تلك اللحظات العصيبة. لكن سرعان ما تحول هذا الأمل إلى توتر جديد، حين حاولت سيارة المجرمين الفرار من الشرطة، فانطلقت بسرعة جنونية إلى داخل الغابات، بينما سيارة الشرطة تلاحقها بلا هوادة.

كان الطريق وعرًا وغير ممهد، يمتلئ بالحفر والفخاخ، والحجارة والحصى التي تعرقل السير، إلى جانب جيف الحيوانات الميتة وفروع الأشجار المتساقطة التي تقطع الطريق بعرضه. السيارة كانت تميل بنا إلى اليسار مرة، وإلى اليمين مرة أخرى، وكأنها تُصارع الطبيعة نفسها. السائق المجرم زاد من سرعة السيارة بشكل جنوني، حتى أوشكت على الانقلاب بنا رأسًا على عقب. الغبار المثار في الجو من احتكاك الإطارات المسرعة بأرض الغابة كان يسد أنفي، يدفعني للعطس، ويزيد من شعوري بالاختناق.

مصابيح السيارة الأمامية كانت مضاءة، تُحاول أن تخترق ظلام الطريق المعتم، حيث كانت الشمس تشارف على الغروب، تلملم خيوطها الحمراء المتناثرة في كل مكان، استعدادًا للرحيل إلى كهفها البعيد المجهول. كان الليل يقترب، يحمل معه ظلاله المخيفة وأشباحه التي تنتشر في الأرجاء، مما زاد من رهبة الموقف. شعرت برجفة مفاجئة تسري في أعصابي، أفقدتني السيطرة على أطرافي، حتى بدأت أسمع صوت اصطكاك أسناني ببعضها البعض من شدة الخوف.

وسط هذا المشهد المروع، بدأ تبادل إطلاق النار بين المسلحين وسيارات الشرطة. كانت الطلقات تتطاير في الهواء، وكأنها تُعلن عن معركة لا هوادة فيها. إحدى الطلقات الطائشة كادت أن تخترق رأسي وتنهي حياتي، لولا أن القدر تدخل في اللحظة المناسبة. انحنيت فجأة لأزيح حشرة كانت تزحف على ساقي، فأخطأتني الطلقة، وأصابت بدلاً مني أحد جوانب السيارة المعدنية، محدثة خرقًا ضئيلاً بها.

استمرت المطاردة لأكثر من ساعة في ظلام الليل الدامس، حيث كانت سيارة المجرمين تفر من مكان إلى آخر، وسيارة الشرطة تلاحقها بلا توقف. وأخيرًا، كانت الغلبة للشرطة التي استطاعت إصابة السائق بطلق ناري في إحدى ذراعيه، مما جعله يفقد القدرة على التحكم في عجلة القيادة. اصطدمت السيارة بأحد الأشجار الضخمة، فتوقفت عن السير والدوران، بينما سيارة الشرطة لحقت بها وحاصرتها، وأحاطت بها من جميع الاتجاهات، لتضع نهاية لهذه المطاردة العنيفة.

حمدت الله كثيرًا على إنقاذه لي، وسجدت شكرًا له بامتنان عميق ملأ قلبي. وما زاد سعادتي وفرحتي أنني رأيت والدي ينزل من إحدى سيارات الشرطة، ثم أقبل نحوي بسرعة ليغمرني بقبلاته الحانية وأحضانه الدافئة. كانت تلك اللحظة مليئة بالحب والاطمئنان، وكأنني عدت إلى بر الأمان بعد رحلة طويلة من الخوف والقلق.

بعد أن فكّت الشرطة قيودي، وأنزلوني من صندوق السيارة الخلفي، شعرت وكأنني ولدت من جديد. نظرات والدي التي حملت كل معاني الحب والقلق كانت كافية لتعيد إليّ قوتي وأملي.

كان مشهد القبض على المجرمين بمثابة نهاية صاخبة لهذا الفصل المروع الذي عشته. حين أُجبروا على الاستسلام، رأيت كل واحد منهم ينزل من السيارة بخطوات ثقيلة، جاثيًا على ركبتيه، واضعًا يديه خلف ظهره، وكأنهم يُسلمون أنفسهم لأحكام القانون بعدما أصبحوا بلا خيار آخر. الشرطة، بحزمها وقوتها، كشفت أقنعة وجوههم التي أخفت حقيقتهم طيلة الوقت، لتُظهر للعيان ملامحهم الحقيقية. انتزعت أسلحتهم الفتاكة، تلك الأدوات التي استخدموها لإلحاق الأذى بالحيوانات البريئة والطبيعة الجميلة. كما حرّز رجال الشرطة الأنياب العاجية التي كانت بحوزتهم، إعادةً لحقوق الطبيعة التي انتهكوها بلا رحمة.

كان ذلك المشهد مليئًا بالدروس والعبر. إنه لشيء مخزٍ أن يُنصاع الإنسان لرغباته الجشعة، فيسلك طريق الشر والإجرام بدلًا من الالتزام بالخير والعمل النبيل الذي يعود بالنفع على المجتمع والبيئة. فبدلًا من أن يكونوا حُماةً للطبيعة، اختاروا أن يكونوا منتهكين لها.

أما أنا، فقد شعرت براحة لم أعهدها من قبل، وأنا أعود إلى المنزل مع أبي وعمي. كانت كلمات الشكر التي وجهها رجال الشرطة لي على شجاعتي تُشعرني بالفخر، لكنها كانت أيضًا تذكيرًا بمسؤولية كل إنسان في التصدي للظلم والانتهاكات. تحدث رجال الشرطة عن أهمية مواجهتنا لهذه الأعمال الإجرامية، سواء كانت في صورة صيد جائر للحيوانات بطرق همجية، أو قطع عشوائي للأشجار، أو تجريف التربة من أجل مكاسب فردية على حساب النظام البيئي.

وفي لحظة تأمل، أدركت أن هذا اليوم العصيب لم يكن مجرد سلسلة من الأحداث المخيفة، بل كان درسًا لا يُنسى في شجاعة الإنسان وقوة القانون وأهمية الحفاظ على التوازن بين البشر والطبيعة. لقد علّمتني الحياة درسًا لن أنساه أبدًا، ما دمت حيًّا أرزق. أن الامتنان للنعم ليس مجرد كلمات تُقال، بل هو شعور يُترجم إلى أفعال تُحافظ على هذه النعم وتعززها.

مع عودة الأمان إلى حياتي، زادت عزيمتي على مشاركة هذه التجربة مع الآخرين. أردت أن أُظهر لهم كيف يمكن للحظة شجاعة واحدة أن تُحدث فرقًا كبيرًا، وكيف يمكن للتمسك بالحق والخير أن يكون طريقنا نحو عالم أفضل.

كان والدي غارقًا في مشاعر الفخر والإعجاب وهو يشاهدني أجيب عن جميع أسئلة واستفسارات المحققين باللغة الفرنسية بطلاقة ودون تلعثم. تمكنتُ من التحدث بثقة، ما جعل والدي يدرك أنني لم أعد

بحاجة إلى وسيط أو مترجم يقف بيني وبين ضباط الشرطة، بل أصبحتُ قادرًا على مواجهة المواقف بنفسي وبكامل قوتي. كان هذا الإنجاز بمثابة شهادة على الجهود التي بذلتها لتطوير مهاراتي، وشعرت حينها أنني قد قطعت شوطًا كبيرًا في طريق الاعتماد على النفس.

بعد انتهاء التحقيقات، اقترب مني أحد المحققين، ونظر إلي بابتسامة تعلو وجهه، وقال بفرنسية فصيحة ووِدٍّ خالص:

"Mes salutations, sir. Tu peux partir maintenant."

كانت تلك الكلمات بمثابة الضوء الأخضر الذي أشعرني بالراحة والأمان بعد كل ما مررت به. وعندما كنت على وشك مغادرة مكتب الشرطة، فوجئت بأحد الضباط يتقدم نحوي وهو يحمل بيده مكافأة ثمينة وقيّمة للغاية. قال لي بابتسامة مليئة بالعرفان: "هذه تعبيرًا عن تقديرنا وامتناننا لمجهوداتك التي ساعدتنا في إلقاء القبض على هؤلاء المجرمين الذين لم يتوانوا عن خرق القوانين، ولم يترددوا في ارتكاب جرائمهم الوحشية."

لم أستطع وصف السعادة التي غمرتني من رأسي إلى أخمص قدمي. شعرتُ كما لو أنني أُعيد إلى الحياة من جديد، فقد أدركتُ حينها مدى حاجة الإنسان للشعور بالتقدير والاحترام من الآخرين. إنه شعور لا يقل أهمية عن حاجتنا للهواء والماء والطعام، بل هو الوقود الذي يدفعنا للاستمرار، ويُثبّت قيمتنا في هذا العالم.

قررتُ أن أحتفظ بهذه المكافأة كهدية تذكارية غالية، تحمل في طيّاتها ذكرى هذه الرحلة العجيبة بكل تفاصيلها وأحداثها. كانت رمزًا لما مررت به من تحديات، ولما تعلمته من دروس ستظل محفورة في ذاكرتي ما حييت. تمنيتُ في أعماقي أن أحافظ على هذه الهدية، وألا أفرط فيها أبدًا، لأنها ليست مجرد مكافأة، بل تُمثل الانتصار، والشجاعة، والتقدير الذي شعرت به في تلك اللحظة التاريخية من حياتي.

كانت لحظات العودة مليئة بالدفء والامتنان، حيث عبر أبي عن إعجابه بشجاعتي وذكائي طوال تلك المحنة التي مررت بها. كان فخره بي واضحًا في عينيه، لكنه لم يُخفِ قلقه الذي رافقه طوال تلك الساعات العصيبة خوفًا من أن يصيبني مكروه. رغم تعبه واندفاعه لمعرفة التفاصيل، كنت أنا منهكًا للغاية، أحتاج للنوم والراحة بعد هذا اليوم الطويل المليء بالأحداث.

حين سألني أبي بفضول: "ماذا حدث معك داخل الغابة يا ولدي؟"، أجبت بلطف: "دعنا نتحدث في هذا الشأن لاحقًا، ريثما أهدأ واستريح." كان أبي متفهمًا للغاية، فوعدني أن يمنحني الوقت الذي أحتاجه، وقال بصوته الدافئ: "لا توجد مشكلة يا ولدي، يُمكنك أن تخبرني بما حدث وقتما تشعر بالرغبة في ذلك، ستجدني كلي آذان صاغية."

لكن حديثنا سرعان ما تحول إلى النقاش حول خطط العودة. اقترح أبي أن نجهز حقائبنا للعودة إلى أرض الوطن غدًا. إلا أن عمي

حاول أن يُثنينا عن الرحيل بسرعة، وقال بحماس: "لماذا لا تبقوا معي لبعض الوقت؟ أريد أن أصطحبكم غدًا في جولة إلى إحدى المحميات الطبيعية ذات الجمال الخلاب القريبة من هنا."

أبي، الذي لم يزل قلقًا ويريد أن يضمن لي الراحة، أجاب برفق: "ربما يحدث هذا في المرة القادمة، عندما نعود لزيارتك مستقبلًا. أليس كذلك يا معاذ؟" أومأت برأسي موافقًا، وقلت: "عندك حق يا أبي، فأنا أريد العودة إلى مصر في أقرب وقت. اشتقت كثيرًا لبلدي الغالي ولأسرتي العزيزة."

في تلك اللحظة، أدركت قيمة وطني الحبيب مصر؛ بلاد الأمن والسلام، حيث أعيش تحت سماء مستقرة بعيدًا عن النزاعات والاضطرابات. هذا الإدراك ملأني امتنانًا وفرحًا، وكأنني أعانق الوطن بقلبي قبل أن تطأه قدماي.

ونتيجة لذلك، قام أبي بحجز تذكرتين للعودة إلى أرض الوطن في اليوم التالي. كانت مشاعر الفرح تغمرني، ومعها توق إلى رؤية أمي وأحبتي مرة أخرى، مستعدًا لطي صفحة هذه التجربة القاسية والبدء من جديد.

العودة إلى الوطن

وأنا جالس على مقعد الطائرة المتجهة إلى وطني الحبيب، شعرت أخيرًا بأنني أعانق الأمان بعد كل ما عشته من مخاطر داخل الغابة.

تلك اللحظات الهادئة في الجو، وسط السكينة التي تلف المكان، كانت أشبه بنسمات تداوي جراح الروح المتعبة. كنت أنظر عبر نافذة الطائرة إلى السماء التي تتلون بأطياف غروب الشمس، وكأنها ترسم لوحة أمل جديدة على صفحة حياتي.

نظرت إلى والدي بجانبي، الذي كان يراقبني بعينين تحملان مزيجًا من الفخر والحنان، وكأنه ينتظر اللحظة التي سأفتح له قلبي لأقص عليه ما حدث. شعرت بأنني بحاجة إلى أن أخرج تلك الذكريات، ليس فقط لأرويها، بل لأتخلص من ثقلها. بدأت حديثي معه، وقد شعرت أنني أعيش تلك الأحداث من جديد بكل تفاصيلها.

بدأت بسرد مغامرتي مع الأرنب البري، ذلك الأرنب الذي اصطياده تطلب مني براعة وحنكة لم أعتقد أنني أملكها. كيف اضطررت لاحقًا إلى تقديمه ككبش فداء؛ لإلهاء الثعبان الذي كان يزحف نحوي، ويحاول الالتفاف حول ساقي بخطورته السامة. ثم انتقلت إلى اللحظة التي عشت فيها تجربة غير مسبوقة مع النسر، ذلك الكائن العظيم الذي حملني بمخالبه القوية إلى الأعلى، وكأنني أصبحت خفيفًا كريشة في مهب الريح.

واصلت الحديث بشغف، وأنا أروي له عن الجولة الخيالية التي خضتها على ظهر الشمبانزي، وكيف كان تأرجحه بين الأشجار أشبه بلحن من الحرية والانطلاق. حكيت له عن اللحظة التي وصلت فيها إلى أرض الغابة بسلام، ليعانقني صديقي الوفي، الفيل،

الذي أخذني معه في رحلة استكشافية أضاءت لي زوايا من جمال الطبيعة لا يمكن وصفها بالكلمات.

لكن الحكاية أخذت منحى أكثر إثارة حين تحدثت عن المطاردة التي خضتها، حين لاحقتنا سيارة المجرمين، وكيف انتهت رحلتنا بشكل مأساوي حين قُتل الفيل وسُرقت أنيابه العاجية الثمينة. عند هذه النقطة، شعرت بدموعي تتسلل إلى عيني، لكنني تمالكت نفسي، إذ كنت أعلم أن ما جرى هو جزء من الواقع المرير الذي يواجهه العالم.

أخبرت والدي كيف وصلت الشرطة في اللحظة الحاسمة، وكيف تمكنوا من إنقاذي من براثن المجرمين. رأيت في عينيه تأثرًا كبيرًا، وكأنني كنت أعيد سرد فصل من كتاب مليء بالمغامرات والتحديات. كان ينصت بكل اهتمام، صامتًا، لكنه لم يخفِ إعجابه بالشجاعة التي أظهرتها في تلك الظروف العصيبة.

وأنا أحكي، كنت أشعر بأنني لا أشارك فقط ذكرياتي، بل أشارك أيضًا جزءًا من الروح التي تغيرت وتعلمت الكثير خلال هذه الرحلة. كانت هذه الحكاية بمثابة فرصة لي ولأبي للتقارب أكثر، ولإدراك أننا رغم كل شيء، نحن محظوظون بوجودنا معًا، وبقدرتنا على طي صفحة هذه التجربة والعودة إلى حياتنا الطبيعية، نحمل في قلوبنا دروسًا ثمينة عما تعنيه الشجاعة، الصمود، وقيمة الوطن.

كان أبي مذهولًا مما سمعه مني عن مغامراتي في الغابة، لدرجة جعلته لا يُصدق ما أخبرته به. كان ينظر إليّ بابتسامة تحمل في طياتها خليطًا من الحيرة والدهشة، وقال ممازحًا: "إنّ هذا الذي حدث معك يا معاذ أشبه بفيلم رسوم متحركة للأطفال."

لم أستطع تمالك نفسي، فانفجرت ضاحكًا، ولم يمضِ وقت طويل حتى انضم أبي إلى ضحكي بصوت مرتفع، ملأ أرجاء الطائرة. كان الأمر وكأننا نخفف عن أنفسنا ثقل تلك اللحظات العصيبة التي مررنا بها. حتى أن ركاب الطائرة الآخرين، الذين كانوا يتمتعون بالهدوء والسكينة، لاحظوا ضحكاتنا ونظروا إلينا بابتسامات خفيفة، وكأنهم يشاركوننا تلك اللحظة المليئة بالبهجة.

وبينما كنا نتبادل الحديث، نظرتُ من النافذة، حيث أرى السماء الزرقاء الهادئة والأرض التي بدت كأنها تحتضننا عن بعد. شعرت برابط خاص بيني وبين هذا الاختراع المذهل الذي يحملنا بسلام نحو مصر، تلك الأرض التي ذكرها الله في كتابه العزيز: *"ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين."* في تلك اللحظة، شعرت بامتنان عميق لبلادي الحبيبة ولكل نعمة منحني الله إياها.

لا زلت مندهشًا من فكرة الطائرة، هذا الجهاز المدهش الذي يطير في السماء بسهولة كما لو كان طائرًا ضخمًا. فطرحت على أبي سؤالًا ملحًا كنت أفكر فيه منذ زمن: "من اخترع الطائرة يا أبي؟ وكيف تعمل؟" كان في عينيَّ فضول ولهفة للحصول على إجابة تُشبع دهشتي.

تثاءب أبي قليلاً والنوم يملأ عينيه، لكنه ابتسم وقال بصوته العميق: "يا بني، يعود الفضل للعالم المسلم عباس بن فرناس، فهو أول من حاول الطيران باختراعه للطائرة الشراعية. صنع جهازًا مزودًا بجناحين منبسطين كأجنحة الطيور، وتمكن من الطيران لأول مرة في التاريخ. لكن، عندما حاول الهبوط، سقط وتعرض لجروح بسيطة؛ لأنه أهمل تصميم الذيل الذي يساعد على الهبوط بأمان."

ثم أكمل حديثه قائلاً: "بعد ذلك، ظهر المنطاد، ذلك الاختراع الساحر الذي يتكون من كيس كبير مملوء بغاز أقل كثافة من الهواء، وسلة أسفل منه. كان المنطاد قادرًا على التحليق في السماء، مما أتاح للراكبين الاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية من الأعلى. ثم، مع تقدم الزمن، جاء الأخوان رايت الأمريكيان، واخترعا أول طائرة بمحرك. كانت الطائرة حينها مجرد جسم معدني ثقيل، لكنها اعتمدت على قوة الرفع التي يولدها المحرك، مما سمح لها بالتحليق في الجو. ومنذ ذلك الحين، تطورت الطائرات بشكل مذهل حتى أصبحت كما تراها اليوم."

أكمل أبي بشغف: "تستطيع الطائرة التحليق بفضل المحرك الذي يمدها بالقوة اللازمة للدفع للأمام، ومن ثم قوة الرفع التي تسمح لها بالارتفاع نحو السماء. إنها حقًا إحدى أعظم اختراعات البشرية."

كنت أستمع لوالدي بانبهار، وكأن حديثه يزيد من تقديري لهذا الاختراع الذي يعبر بي السماء في تلك اللحظات. أدركت كم أن

الحياة مليئة بالمعجزات التي قد تكون بالنسبة لنا مجرد أمور عادية، لكنها تحمل خلفها الكثير من العظمة والإبداع الإنساني.

أنهى أبي حديثه، وسرعان ما استسلم لنوم عميق، كان يبدو عليه الإرهاق والراحة في آنٍ واحد، وكأنه يُحاول استعادة أنفاسه بعد هذه الرحلة التي كانت مليئة بالمفاجآت والتحديات. لكنني، على عكسه، لم أستطع أن أجد طريقًا إلى الهدوء. كان قلبي ينبض بسرعة، وكأن ذكريات الغابة تلاحقني حتى وأنا في السماء، بعيدًا عنها.

أخرجت الهاتف من جيبي، ذاك الهاتف الذي أصبح شاشته مشوهة ومليئة بالتصدعات نتيجة سقوطه المتكرر على أرض الغابة الوعرة. نظرتُ إليه مليًا، والشعور بالندم يعصف بقلبي. كان وعدي لمالك يتردد في ذهني كأنه صدى بعيد: "سأعيده لك كما هو، بلا كسور ولا خدوش." لكن ها هو الهاتف، يحمل آثار كل تلك اللحظات العصيبة التي عشتها، وكأنه شاهد على تجربتي.

طفقت أفرقع أصابعي تارة، وأقضم أظافري تارة أخرى، بينما ساقايّ تهتزان بتلقائية، تعبيرًا عن التوتر الذي سيطر عليّ. كنت أبحث في داخلي عن حل، عن طريقة لإصلاح ما حدث، لكنني كنت أعلم في أعماقي أن الحل لن يكون سهلاً. كلام أبي الذي قاله لي من قبل بدأ يرن في أذني كناقوس يُذكرني بدرسٍ هام: *"يجب أن تتحمل مسؤولية قراراتك ونتائج أفعالك."*

فكرت في طلب المال من أبي لشراء هاتف جديد لمالك، لكنني سرعان ما صرفت النظر عن هذه الفكرة. لقد عانى أبي بما يكفي من تصرفاتي الطائشة، وكل تلك اللحظات التي تحمل فيها نتائج أفعالي. ربما حان الوقت لأن أتحمل مسؤوليتي كاملة، دون أن ألجأ إليه لإنقاذي هذه المرة.

شعرت أن هذه اللحظة كانت نقطة تحول في حياتي. أدركت أن تحمل المسؤولية لا يعني فقط مواجهة العواقب، بل يعني أيضًا التفكير مليًا قبل اتخاذ أي قرار، والالتزام بوعودي مهما كانت الظروف. كنتُ بحاجة إلى أن أُثبت لنفسي قبل الآخرين أنني أستطيع أن أكون شخصًا يعتمد عليه.

وأنا أُمسك بالهاتف بين يدي، تأملت التصدعات التي شابت شاشته، وكأنها تحكي قصة تجربتي في الغابة بكل تفاصيلها. قررت أن أبحث عن طريقة لإصلاح الهاتف بنفسي، حتى لو تطلب الأمر العمل بجد أو التضحية بشيء آخر. كانت تلك البداية لمسار جديد في حياتي، مسار يُعلمني المسؤولية والاعتماد على النفس.

وأنا جالس في مقعد الطائرة، ما زال القلق يُحيط بي كغيمة ثقيلة رغم أنني في طريق العودة إلى الوطن. وفجأة، مرّت المضيفة الأنيقة التي كنت قد التقيتها في رحلة الذهاب إلى الكونغو، ذات الابتسامة الساحرة واللطافة التي تُميزها عن الجميع. يبدو أن الصدفة وحسن الحظ أعادا جمعنا في هذه الرحلة أيضًا. لكن هذه المرة، لاحظت بسهولة علامات القلق والتوتر البادية على وجهي

الذي احمرّ من التفكير، يتصبب عرقًا، بينما كنت أُتمتم بصوت خافت، كما أفعل دائمًا عندما أغرق في الأفكار العظيمة التي تسرقني من الواقع.

اقتربت المضيفة من مقعدي، وعلى وجهها تعبيرٌ لطيف يشي بأنها تريد التخفيف عني. لكن قبل أن تتحدث أو تنطق بكلمة، توقفت فجأة، وأبدت إعجابها بالطوق المعلق حول عنقي. لم يكن الطوق عاديًا، فقد كان يتدلى منه ناب عاجي ناصع البياض، رمزًا لرحلتي الصعبة وصديقي الفيل الذي فقدته وسط الأحداث. سألتني بدهشة تعلو صوتها: "كيف حصلت على هذا الناب العاجي الثمين؟ لابد أنك بطل مغوار؛ لتتمكن من اقتناء شيء كهذا، أليس كذلك؟"

ابتسمتُ ابتسامة باهتة، وأطرقت برهة بينما أحاول جمع أفكاري، ثم قلت لها بصوتٍ خافت: "إنها قصة طويلة ويصعب شرحها الآن. ربما لو تقابلنا في المستقبل، لن أتردد في أن أسردها لكِ كاملة. لكن باختصار، أحد ضباط الشرطة الكونغوليين منحني هذا الناب كمكافأة على شجاعتي ومساعدتي في القبض على المجرمين الذين قتلوا حُرّاس الغابة."

نظرت إليّ المضيفة وهي تهز رأسها بإعجاب، وقالت: "إذن، لابد أن تكون سعيدًا بهذا التكريم. لكن الغريب، وجهك يروي قصة مختلفة تمامًا، كأنك تحمل همًا ثقيلًا. لماذا تبدو متضايقًا إذن؟"

تنهدت وقلت لها بصوت منخفض: "إنها قصة طويلة أيضًا، لكن ببساطة، أحتاج إلى هاتف جديد لأمرٍ مُلح." بدا الحزن واضحًا في صوتي، وكأنني أعترف بعجزٍ يؤرقني.

ابتسمت المضيفة بحنو، وقالت بحماس: "لديّ الحل. ما رأيك في عقد صفقة؟"

شعرتُ بشعلة أمل تضيء داخلي، وقلت لها متلهفًا: "أرجوكِ، أخبريني فورًا!" فأجابت بابتسامة واسعة: "سأعطيكِ هاتفي الجوال الجديد، الذي اشتريته حديثًا، مقابل أن تمنحني هذا الناب العاجي الجميل. لقد أحببته كثيرًا."

ورغم أنني علمت أن هذه المقايضة غير منصفة تمامًا، حيث أن الفرق شاسع بين قيمة الناب العاجي والهاتف، وافقت على الفور. كنت أعلم في أعماقي أنني أخسر شيئًا نفيسًا، لكني لم أرَ خيارًا آخر. لم أرد أن أبدو كطفل غير ناضج أو غير قادر على الوفاء بوعدي لأخي وعائلتي. وعلى الرغم من شعور بالارتياح الذي اجتاحني بعد التخلص من الشعور بالذنب، إلا أن هناك وخزًا مؤلمًا في قلبي. كيف لي أن أفرط في الناب العاجي الذي كنت أنوي الاحتفاظ به كذكرى لصديقي الفيل، وكإشارة إلى رحلة مليئة بالدروس؟

لكنني أدركت أن هذه هي طبيعة الحياة؛ الفوز بشيء يستلزم التضحية بشيء آخر. ما أصعب الاختيار حين تكون أمام أمرين لا

يمكنك الاستغناء عن أحدهما! كان هذا الدرس باهظًا، ولكنه علمني معنى المسؤولية وما يعنيه الالتزام بالوعود.

غادرت المضيفة وهي تحمل معها الناب الثمين، بينما شعرت بفراغ في داخلي. ولكي أتجاوز هذه اللحظة المؤلمة، شرعتُ في كتابة مقال بعنوان "أنقذوا رئة العالم الثانية". أرفقت معه الصور التي وثقت بها الفساد الذي رأيته في الغابة، ثم أطلقت المقال للعالم. كان هذا بمثابة نداء استغاثة إلى البشرية جمعاء، مناشدًا الجميع أن يتحركوا لإنقاذ الطبيعة من عبث الإنسان.

مع اقتراب الطائرة من الهبوط، كنت أستشعر مشاعر مختلطة بين الحنين للوطن والحماسة لبدء فصل جديد في حياتي. أدركت أن الحديث عن التغيير لا يكفي، بل يجب أن أبدأ بنفسي وأكون جزءًا من الحل. قررت أن أول خطوة سأقوم بها بمجرد وصولي إلى مصر هي زراعة الأشجار. تلك الأشجار الخضراء اليانعة التي ستعيد للحياة رونقها، والتي سأغرسها ليس فقط حول منزلي، بل في كل شارع وزقاق في قريتي الصغيرة. شعرت أنني مدين للبيئة، للطبيعة التي احتضنتني في الغابة، وتركت بصمة لا تُنسى في داخلي.

لكنني لم أتوقف عند هذا القرار. فكرت في خطوات أكبر، مثل إقناع أبي باستبدال سيارتنا القديمة التي تعمل بالبنزين بسيارة كهربائية تعتمد على طاقة نظيفة وصديقة للبيئة. نعم، كنت أعلم أن هذا الأمر ليس سهلاً، فالسيارات الكهربائية ليست في متناول الجميع بسبب

تكاليفها الباهظة. إلا أن حلمي يتجاوز العقبات، ورغبتي في تحقيقه تنبع من إدراكي لحجم الكوارث البيئية التي نواجهها. تمنيت أن يأتي يوم تصبح فيه تلك السيارات ميسورة التكلفة للجميع، ويكون اقتناؤها خطوة عادية في حياة كل أسرة.

وهناك فكرة أخرى ربطتني بحلمي؛ أرباح موقعي الإلكتروني الذي بدأت أرى فيه فرصة لا تساعدني فقط على تحقيق الاستقلال المادي، بل على تمويل مبادراتي البيئية. أصبحت أرى في نفسي شخصًا يستطيع تحقيق الأثر، لا مجرد مشاهد سلبي ينتظر من الآخرين أن يتحركوا. أردت أن أثبت لنفسي ولكل من حولي أن التغيير ممكن إذا ما قررنا العمل بجدية.

وكلما فكرت في تأثيرات غاز ثاني أكسيد الكربون على الإنسان والبيئة، شعرت بمزيد من الإصرار. هذا الغاز لا يدمر الغلاف الجوي فقط، لكنه يتسبب في أمراض تنفسية خطيرة، ويُعرّض حياة الإنسان للخطر. أردت أن أكون جزءًا من الحلول، لا مجرد ناقل للوعي. قررت أن أبدأ بتصنيف النفايات المنزلية، أفرز البلاستيك، الورق، الزجاج والمخلفات المعدنية، وأضع كل نوع في سلة مخصصة. وجدت في هذه الخطوة البسيطة طريقة رائعة للحفاظ على البيئة وتشجيع إعادة التدوير.

لكنني لم أتوقف عند حدود المنزل فقط. فكرت في كيفية توظيف هذه الأفكار بشكل أكبر، مثل تحويل الزجاجات البلاستيكية إلى مزهريات جميلة مزينة بالورق الملون والزهور، أو إعادة

استخدامها كحافظات للأقلام المبعثرة. كان هذا بالنسبة لي جزءًا من التفكير الإبداعي لمواجهة أزمة التلوث.

وعندما نشرت مقالتي بعنوان "أنقذوا رئة العالم الثانية"، كنت أعلم أن الأمر لا ينتهي عند الكتابة. شعرت بفرحة غامرة عندما بدأ الناس في التفاعل مع المقال، بدءًا من زملائي وجيراني، إلى المعلمين في مدرستي وحتى أشخاص لم أكن أتوقع اهتمامهم. مواقع التواصل الاجتماعي أثبتت لي قوتها، حيث انتشر المقال كالنار في الهشيم، وبدأ الجميع يتحدثون عن هذه القضية الملحة.

انقسمت ردود الفعل بين دهشة من حجم الدمار الذي تشهده غابات الكونغو، وإدانة شديدة للأعمال الإجرامية ضد الطبيعة. لكن أكثر ما أسعدني هو أن البعض قرر التحرك فعليًا، واتخاذ خطوات لإنقاذ الغابات والمحافظة على البيئة. شعرت أن صوتي قد وصل، وأن هناك تأثيرًا حقيقيًا لما قمت به.

لكنني كنت أعلم أن الكلمات وحدها لا تكفي. الطبيعة، كما رأيتها في الغابة، هي كيان قوي، وإذا ما غضبت، فإنها لن ترحم أحدًا. لذلك، دعوت كل من قرأ مقالتي أن يتحرك، أن يتخذ خطوات عملية للحفاظ على البيئة قبل أن يفوت الأوان. أدركت أنني ربما أكون شابًا صغيرًا، لكنني أملك صوتًا يستطيع أن يُحدث فرقًا. وهذا هو الدرس الأكبر الذي خرجت به من هذه الرحلة: أن الأفعال الصغيرة التي تبدأها بنفسك قد تكون الشرارة التي تُغير العالم.

تمت بحمد الله

***

ما بين الحياة والمغامرة، تُرافق هذه الحكاية قارئها في رحلة استثنائية إلى قلب غابات الكونغو، إحدى رئات العالم التي تمد الكوكب بالتوازن والجمال. رحلة مليئة بالتحديات والقرارات المصيرية، تُظهر الوجه الحقيقي للصراع بين الحفاظ على الطبيعة وطمع الإنسان الذي يهدد بتدميرها.

عبر صفحات هذا الكتاب، ستتعرّف إلى دروس عميقة عن المسؤولية، الشجاعة، وحب الوطن، كما ستكتشف أهمية الطبيعة في حياة البشر ومستقبلهم. تحكي القصة عن أملٍ جديد ينبعث من قلب المعاناة، وعن كيفية اتخاذ الأفعال الصغيرة لتحفيز التغيير وحماية البيئة.

هذا الكتاب ليس مجرد سرد لتجربة شخصية، بل هو نداء عالمي مُلهم، دعوة إلى جميع سكان الأرض للتحرك قبل أن ينفد الوقت وتغضب الطبيعة. لأنه حينها، لن ينجو من بطشها إلا من استوعب الدرس.